ظلمات وأشعة

تأليف

مي زياده

دار بيروت

للطباعة والنشر

بيروت ١٩٥٢

ظلمات وأشعة

تأليف

مَيّ زيادَه

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٢

من كوّة الحياة

... وقفت عند كوة الحياة لا ادري لماذا أقف ومن ذا أوقفني هناك . واذا بالناس في السبيل يمرون ، فأخذت اتفحص الوجوه منهم والحركات لعلي اعثر على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفين عني ، ولعلي ادرك ما هذا الذي يطلب مني رغم حداثتي وحيرتي وجهلي وقلة اختباري . فصرت اعجب بالناس واغبطهم على ما لديهم وليس لي ان افوز بمثله ، واتعزى بمظاهر الكآبة عندهم لتكون تلك المظاهر صلة ، ولو واهية ، بيني وبينهم . على اني لم ازدد الا شعوراً بحيرتي وعجزي ، لم ازدد الا شعوراً بأني خيال لا ضرورة له ازاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة — مع ان هذا الخيال يطلب منه شيء كثير لا يدري ما هو . فظننت لحظة اني وصلت الى قرارة اليأس واني شربت كأس المرارة حتى الثمالة . ثم اوحي الي بان هناك وجوداً غير ملموس يدعى السعادة ، وشعرت باحتياج محرق الى التعرف اليها والتمتع بها . ففهمت انه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكوتها وعجزها من تلقي ذلك الوحي العنيف والشعور بذلك الاحتياج العميق ...

انا والطفل

هناك بعيداً عن المدينة وضوضائها ، في الطريق المؤدية الى قصر كان بالأمس للخديو اسماعيل ولم يعد له ، على شط معبود المصريين ومرضع سهول إيزيس — ، على شط النيل النائح في سيره على رفات العذارى المبعثر في اعماقه — هناك روضة غناء مفتوحة لجميع الداخلين وقد حفظ جوها احلام زائريها المتأملين.

قصدت الى الحديقة في صباح يوم منير . نبذت عني عادات المدنية فافترشت الثرى كما يفترش سكان البادية ومال الصحراء ، وتمددت على العشب الاخضر في فيء شجيرة عند قدمي احد التماثيل المنصوبة هنالك .

لم أرَ حولي سوى سيدتين انجليزيتين مع احداهما ثلاثة اطفال . وان هي الا دقائق حتى اقترب مني احد هؤلاء ، وهو صبي في الرابعة من سنواته . فناديته قائلة « تعال اليَّ ايها الصغير ! » .

فدنا واجفاً باسماً ، فسألته : « ألا تجلس على ركبتي ؟ »
فجلس صامتاً .

ولما شعرت بثقل جسده الصغير ذكرت اخي الوحيد الميت، ووثب قلبي الى شفتيّ وجالت الدموع بين اجفاني فملت الى الطفل امتص من حلاوة وجنته ، لاهية بتلك القبلة عن كآبتي المتصاعدة من فؤادي كما يتصاعد الغيم من اطراف البحار .

ما اعذب قبلة الاطفال ، وما اطيب طعم ابتسامهم ! .

ثم سألت الطفل : « ما اسمك ؟ »

قال : « روبرت »

نظرت في وجهه فاذا به آية من آيات الجمال الانجليزي : وجهٌ شفاف كأنما هو عصير ورد وياسمين تجمد فنُحِتَ وجهاً بشرياً . وفم كزرّ الورد لطفاً وانكماشاً . وجبهة كبيرة عالية يخفيها شعر ذهبي مسدول عليها . وعينان لهما زرقة عميقة كزرقة البحار بعيد الغروب ، وهما كبعض العيون الانجليزية في جمودهما الظاهري وحرارتهما الخفية وحلاوتهما وتلاعبهما . نظرت في جميع هذه الملامح متمعنة ، فقلت للطفل : « من أين اتيت بعينيك ، يا روبرت ، ومن اعطاك زرقتهما ؟ »

أجاب ، ولم يفهم غير كلمتي « من اعطاك » :

— « ماما »

قلت : « قرّت عينا امك بك ! واي عمل يعمل أبوك ؟ »

قال : ولثغاته اللطيفة تتدحرج على لسانه متعثرة بشفتيه :

ـ « بابا ضابط . وانا عسكري مثل بابا »

قلت : « انت جميل وانا احبك يا روبرت . هات يدك »

قال : « Yees, than kou »

يد الاطفال عجيبة حلوة كابتسامتهم . اخذت يد روبرت اقرأ فيها ما خطته يد الاقدار . يدٌ مربعة كبيرة الابهام وفيها كل من خطوط الحياة والعقل والقلب واضح جليّ ، وتلُّ المريخ يرتفع في تلك الكفّ الصغيرة متهدداً متوعداً...

فنظرت اليه وخاطبته همساً :

ـ « هذه اليد التي تنقل اشاراتها اليوم ما حفظته من اشارات الملائكة ، هذه اليد التي لا تمتد الا لمداعبة الندى ولمس الازاهير ، هذه اليد الصغيرة الطرية سوف تصير يد جندي ، سوف تقبض على السيف والحربة وتطلق النيران من افواه المدافع ، سوف تفتك بحياة البشر اشراراً كانوا أم ابراراً...»

قال روبرت وهو يضرب أديم الحديقة بقدميه :

ـ « انا عسكري مثل بابا ! »

قلت : « نعم يا روبرت ، عندما تبلغ سن التجند تصبح جندياً . وستكون جميلاً في ثوبك العسكري ، ستكون جميلاً جداً ، لكن اقل جمالاً منك اليوم وانت بأثواب الطفولة . سوف تبسم لك النساء لانهن يملن الى الجنود ، ومُذهَّبُ الاكمام

والصدور يسير بهنّ الى عالم الاحلام . وهذه اليـــد الصغيرة الضعيفة سوف تكون كبيرة قادرة تؤلم وتشقي وتميت ، سوف تلمس آلات التدمير والهلاك بعزم وثبات ! وعيناك الجميلتان سوف تكونان عيني جلاد يرى الدماء والدموع دون ان يلين او يرحم... وقلبك ، ترى كيف يكون قلبك الذي لا يدرك اليوم ولا يشعر إلا قليلاً..؟

« أتكون من الكثيرين الذين لا يحسبون للعواطف في الحياة حساباً ، فيلعبون ويضحكون ويتمتعون ويحزنون دون استبقاء اثر لما يختبرون ، بل تمرُّ الافراح والاتراح على نفوسهم كما تسقط دموع الغيوم على صفحة الزجاج فلا تترك عليها سوى ما لا يلبث ان يزول... ام تكون من اولئك الذين يشعرون بقوة وحدّة ويتظاهرون بعكس ذلك كبراً وخجلاً ؟... هل تضربك يوماً يد امرأة فتضع في عينيك للحب دموعاً وتغمد في فؤادك من اليأس خنجراً ؟ .

« غداً ، يا روبرت ، تنمو جسداً ونفساً ، غـــداً تقف على احوال البشر فتجد ذاتك وحيداً في معترك الحياة ؛ غداً تعذبك المسؤولية وتضنيك المجاهدة ، ويلذعك لهيب الفكر وتذيبك نار الهيام . غداً تذوق ظمأ الروح . غداً تصير انسانـاً ، يا لهول الكلمة ! غداً تصير انساناً اي حيواناً والهاً معاً !.. »

صمتُ طويلاً

وفي ذلك الهدوء الشامل في حضن الطبيعة تصاعدت نغمة حلوة من اطراف الحديقة وانتشر تموجها على انفاس الازهار : وكان ذلك صوت المؤذن يردّد في الظهيرة ما أنشده في الفجر وما سيعيده عند الغروب .

فسألت : « هل سمعت الصوت ، يا روبرت ؟ »

اجاب : « Yees »

قلت : « عما قريب تعرف ما هي الميثولوجية ، وما هي النصرانية ، وما هو الاسلام . عمّا قريب تفهم ما هو التعصب الديني والجنسي والعلمي والعائلي والفردي . عما قريب تعلم ان الانسجة التي تخاط منها اثواب العرس تصنع منها اكفان الشهداء . عما قريب ترى الاقوام يفتكون بالاقوام لانهم محتشدون حول قطعة نسيج صبغت بلون غير لون نسيجهم . عما قريب ترى كل هذا ، يا روبرت ، وتشترك فيه لانك عسكري مثل بابا ! » .

* * *

انفصلتُ عن روبرت بلا قبلة ولا تحية . انا لم اقبله لاني وقفت متهيبة امام رجل الغد منه . وهو لم يقبلني لاني لم أعطه كعكاً ولا حلواء...

بين عامين

بين شطّي الماضي والمستقبل يجري نهر الحياة ثملًا بعقيقه الفخم، ليصب في بحر الابدية حيث لا جديد ولا قديم ؛ وخيالات البشر تتهادى بين جماجم الموت واغراس الحياة مخفية طيّ ضلوعها كثيراً من الآمال وكثيراً من الكلوم .

فإلى بحر الابدية ، ايها العام الراحل !
وانت ايها العام الجديد ، إلينا !

* * *

وطئت الارض طفلًا جميلًا، فنبهت في قلوب الشيوخ الحنان وكنت صلة حب بين ارواح الخُلصان .

امتزجت نسماتك بدقائق الاثير فاصبح مغرداً لامعاً ، وامتشقت حسام الصبح ضارباً اعناق جيوش الظلام فسالت منها الدماء في المشرق وملأت كتائب النور الارض والسماء .

وداست اعقابك على هام الايام فافنت قديمها وغدا اليأس املًا والنواح تهليلًا .

هي الانسانية طفلة في هرمها كلما ذاقت عذاباً رجت حظاً، ولئن مزقت احشاءها الضغائن والاحقاد فموجات الحب العظيم ما برحت غامرة فؤادها .

فاسمع هتافها متخللًا اصوات الصباح : رحماك ، ايها العام ، رحماك ! .

لقد كتبت اسمك يـد الزمان على باب الوجود ، فساعدنا لننقش اسماءنا على باب السعادة !

كنا بالامس نلمس الاوتار فتسيل عليها الدموع مرخية قواها، فما تسمعنا سوى شكوى المذلة وأنين العبودية . اما اليوم فنريد ان ننعش ارواح العيدان لنوقع اسمى المبادىء على اعذب الالحان.

رحماك ايها العام الجديد ، الانسانية تتألم فارفق بها !

* * *

رحماك ، ايها الطفل الحبيب !

تعال نعطك القبلات السنوية الثلاث: فعلى جبهتك قبلة الرجاء، وعلى ابتسامتك قبلة الوداد، وعلى يديك قبلة الالتماس والتوسل.

جبهتك مستودع الافكار ، وابتسامتك عبير الازهـــار ، ويداك رمز القوة المتنقلة ابدية من أدهار الى أدهار .

هذه امانينا نلقي بها عند قدميك فلا تدسها فتلاشينا بل ضمها اليك فتحيينا .

نشيد نهر الصفا

عين زحلتنا قرية لطيفة يعرفها الذين اعتادوا الاصطياف في جبال لبنان ، وألطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي تحيط بها ، واجمل من هذه وتلك منظر نهر الصفا المتدفق عند قدم الجبل ، وعلى بعد امتار قليلة منه يركض نهر القاعة .

كل من النهرين يسرد حكايته الابدية على الاشجار المصغية اليهما بحللها السندسية . ويظل النهران في اندفاع وشكوى ، وروح الوادي تئن في اثرهما الى ان تلثم مياههما مياه البحر العظيم .

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرّات الاثير ؛

هنا اجتمعت بلابل ارفيوس لتعيد ذكرى اوريديس ذات القلب الكسير ؛

هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية ، وتحوّلت الورود الى اشعةٍ سحرية ؛

هنا اغتسل قوس قزح ، فترك في الماء من ألوانه الحاناً فضية ؛

ومن دماء الاحـــلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية ؛

هنا بعث الافق باسراره الى الارض مع خيوطٍ من الاثير ذهبية ؛

هنا نامت الاشباح بين اجفان بنات المياه ، فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام ،

هنا ناحت حمائم الشعر وغنّت اطيار الانغام ؛

هنا لثمات النسيم شوقٌ وهيام

ومداعبة الموجة للموجة تبادل نظرة وابتسام ،

وجمود الشاطىء حقدٌ على فتور الليالي ومعاكسات الايام ؛

هنا ارتعاش الاوراق عـــلى الغصون تحية همت من مقل الكواكب وسلام

وتمايل الافنان ودلالها نجوى ملك الوحي والالهام ،

هنا ليلة انوار وفجر ظلام والغاز ملامس وألوان وانغام .

حينما يمر الفجر على قمم الجبـال يرى صورته في هذه المرآة البلورية — يرى رمز الشبيبة مع ما يتبعهـا من الآمال النضرة كالازهار ، والميول المتنقلة كالاطيار . ثم يأتي الغروب ساكباً في اعماقها مرارة أحزانه مع ما يرافقهـا من النظرات المتحولة ، والابتسامات المتغيبة ، والجبـــاه الكئيبة ، والشفاه المتحركة بالصلوات ، الساكنة بالتأملات

هنا عيـدان الاشجان تبكي ، تبكي بقلب جريح . وفي كل

لحظة يخيل انها تسلم نَفَسَها الاخير بشهيق فيه من اللوعة والكتمان والتجلد بقدر ما فيه من المجـــد والعظمة ، من البسالة وعزّة النفس الابية

لكن المياه لا تموت ولا تحيا ، بل تعيد ذكرى المـــاضي وتهمس بنبوءتها في المستقبل ، وتكرر اصوات الافراح وتردد آهات الاتراح

هنا لغز من الغاز الحياة وليلة من ليالي الزمان . وانا لغز امام هذا اللغز ، وليلة ازاء هذه الليلة . أهيم وحيدة على الشاطىء الحزين ، انظر ولا أرى ، أسمع ولا افهم ، ابحث ولا أجد ، استعلم ولا اعلم.... فؤادي يخفق مع فؤاد النهر الخفي، ونفسي قيثارة الاحلام والالحان . لكني لغز حي تائه في ظل الغصون ، ينظر مستفسراً الى لغز آخر فـــلا يجد فيه إلا صورته ، فيود تمزيقها وسحقها وان أحبها !

* * *

عند احتضار النهـــار ذهبت الى رأس النبع وجلست على صخرة قائمة في وسط المياه المتسلسلة من صدر الصخرة الكبيرة . جلست وأرواح الخيال تتنشق الاريج العطري المعـانق شعور بنات المياه . وآلهة الاهوية الاربعة يتلاعبون بدقائق الشفق سابحين على أمواج الظـــلام . وحول اشباحهم تلتف اكاليل

البنفسج وقلائد الياسمين ، وفي ثغورهم يلمع فتيت النجوم ، بينا أبكار الشعر تسر لاخواتها خفايا اليأس والرجاء تحت اشجـــار الصنوبر ، وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد « باخوس » خمراً تسكر به الآلهة . ومن سكر الآلهة يولد الشعراء والانبياء

وعلى هذه الصخرة حيث أنا احلم ثملاً بما شربته مشاعري من رحيق الخيال العلوي ، كان يجلس الامير بشير الشهابي الكبير . كثيرون بعده وقبلي جلسوا هنا وفؤاد كلٍ منهم منقبض تهيباً وخشوعاً امام انفـــاس الطبيعة واصوات الخلود . وما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأن الافكار تتشابه في المصدر وفي النتيجة رغم تشعبها وتفرعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في اعماق النفس البشرية هي هي في كل آنٍ ومكان

جميعنا طرح السؤال الذي القيه الآن على المياه المتراكضة : هو سر الاسرار الغامضة الذي يرجعه صدى الهياكل المشادة في قدس اقداس البشرية : من أين والى أين ؟ من أين والى أين؟؟

من أين تأتين ايتها المياه والى اين تذهبين ؟
من أين اتينا والى أين نذهب ؟...

المياه تتدفق اثر المياه مهللة مكبرة ، وقد رفعت اصواتها في الغناء والنحيب ، ودمدمت العناصر فيها أسرار الفيض الالهي ، ورفرفت على جوانبها أجنحة الخلود ...

من أين والى أين ...؟

ثقل دماغي بافكار لا أُدركها . وضاق مني الصدر لهموم لا أَعرف ماهيتها ، فنزعت عن ساعـدي ساعة وضعت في اسورة ذهبية ونظرة اليهـا قائلة : — « ايتها الساعة ! انت رمز الوقت الجاري في نهر الزمان فيسير قاصداً بحر الابدية . ها انا اغطسك في هذه المياه ... عسى ان تحفظي في حياتك المعدنية أثراً لرموز معنوية » . ثم جمعت بعض الحصى الملونة الجميلة الراكدة في اعماق النهر ، قائلة : « ايتها الجواهر ! سأحملك معي الى وادي النيـل لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت في فؤادي امام نهر الصفا.. انت ذكر الابدية التي حييتُ فيها لحظة »

واذ رفعت عينيّ الى الافق رأيت مقلة الزهرة ترقب يد ملك الظلام الراسمة على رداء الليل صوَر الهيئات السماوية

فغادرت رأس النبع مرددة: أنهر الصفا ! من أين والى أين؟

* * *

أنهرَ الصفا ! جئتك تعبة الروح والجسد معاً

قرأت خلاصة الاحوال الحـــاضرة فدوى في مخيلتي هدير المدافع ، وتمثلت لنـاظري صور الحرب المخيفـة . ثم قصدت الاجتماعات فملأ اذني ضجيجها التافه ، وضجرت نفسي من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة . عجبت لبلاهة الانسان وركاكة ميوله

وفتور همته . اذ ذاك سمعت اسمك الموسيقيّ فاحببته لأن فيه جمالاً وعذوبة وسلاماً

لقد احرقت قدميّ الرمال الحارة ، ومزقت يديّ اشواك الحياة ، فجئت أستخلص من اعشابك بلسماً لجروحي . تعلق باهدابي غبارُ المادة محاولاً إخفاء الجمال المعنوي عن عينيّ ، فأتيت أغسل أهدابي بمياهك المقدسة

جئت لأرطب يديّ وعينيّ برضابك العذب

ثقُل فؤادي عليّ ، فاسرعت لأبعث به معك الى روح البحر العظيم الذي يناديك من عمق أعماق زرقته البعيدة .

أنت ابن الغيوم ، والعوبة الحرارة الهوائية ، وضحكة المادة الدائمة ، وقهقهة الجو بين الهضاب والاودية . انت قبلة الشمس للبحر . انت انشودة الجبل في الوادي . انت الروح الصغيرة المسرعة الى احضان الروح الكبيرة

انت عميق كأسرار الجنان ، عذبٌ كنظرات الولهان ، وفي اسمك ألوان والحان .

أنت تهلمم بي ، ايها النهر ، فخذني معك بعيداً عن الحياة وضوضائها ، خذني معك ... لكن ، ما هي نسبتي اليك ؟

انت مجموع سوائل لا وجدان لها ، ولا قلب يخفق بين اجزائها . وانا... انا شيء آخر . انت لغز بين البحار والآفاق،

وانا لغز بين الحياة واللانهاية . أنا اعرف اني لا افهمك ، واشعر بجهل الانسان وشقائه ، اما انت... ما لنا ولك ؟

سيري ، ايتها المياه ، سيري واتركيني . إسقي النباتات والاعشاب ، ضمي لآلىء في ثغور الورود ، رطبي صدر الارض الملتهب ، ترنمي في وحدة الوادي ، اسردي حكايتك التي لا تنتهي اندبي هالي ، اصرخي اهمسي ، انشدي انحبي ، اطربي احزني ، كل هذا ننسبه اليك ، نحن ابناء النشوة والكآبة

سيري ، ايتها المياه ، ودعيني ابكي. لقد تلبد جوّ فكري بالغيوم القاتمة ، وقلبي ــ ما الك وله ! ــ منفرد حزين ...

الساعة المفقودة

جعلها ارباب التجارة حلية نسائية واتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشراء .

صورة مصغرة للكون ، كذلك كانت ساعتي : مساحتها رمز للفضاء ، دورتها مسرح اللانهاية ، حدودها حدود الامكان ، علامتها مقاطع الوقت الذي رتبه الانسان ، ساعاتها مقياس الاعمال، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقُّبٌ لوفود الآمال، ثوانيها دقات القلب ... من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجاً .

فيا لهول ثواني الزمان ، ويا لهول نبضات قلب الانسان !

بين ثانيةٍ وثانيةٍ يلتقي العدوّان في احشاء الثرى: الماء والنار، فتميد الارض بمن عليها وتتفطر اساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية ، وتزفر الطبيعة زفرتها القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة فيتدحرجون الى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً .

بين ثانيةٍ وثانيةٍ يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدري

رعود المدافع في الفضاء ، وتختطف بروق السيوف غالي الارواح. ولأجل كلمة غالب او مغلوب تندك عروش وتنتصب عروش ، تُدمّر ممالك ويعمر سواها ، تخرب مدائن ويشاد غيرهـــا تتجندل افرادٌ وتفنى مجاميع فترتدي الاقوام سواد الالوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الاحزان .

بين ثانية وثانية يموت امـل ويحيا يأس ، تبتسم شفةٌ وتدمع عين ، يخون صديقٌ ويخلص عدو ، بين الثانية والثانية !

وبين نبضة ونبضة هناك سر الاسرار. دماء منبعثة الى القلب ودماء منبعثة منه ، تتهـافت عليـه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية . بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لهـــا اسس العمر ، وانفعالات تشخص لمرورهـا ذرات الكيان . اشتعال الفكر وخمود العـــاطفة ، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات الغرام والحسرات العظام ، قنوط ورجاء ، سعادة وشقاء، هتاف الروح المسلمة ولهاث الروح المودعة .

* * *

يا ابنة ابيك؟ يغدرنا الزمان ساعة الرجاء، ويخوننا يوم الصفاء ويهجرنا حين اللقاء : فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان ، يا ابنة الزمان !

كم من ساعٍ طيباتٍ وقعتْ مرورهن على دوران عقربيك

وفكري يناجيك باحاديث هداه وضلالهِ ! ابتسم لك عنـــد السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين ، وأتنهـــد حيالك يوم الاسى فأحسبك تتنهدين وتحزَنين ، وكأنَّ عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين .

لما افنت قلبي وحدةُ القلب ضغطتُ بك على ساعدي قائلة « انت الصديقة التي لا تخون » . ولمـــا مزَّقت سمعي اكاذيبُ الناس واحاديثهم المؤذية ، خاطبتك قائلة « انت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين » . ولما اذابني الجهل بدعواه والغرور بسخافته ، نظرت اليك قائلة « انت عالمة لذلك تصمتين » .

وكنتِ تعزيتي ،

وكنت زماني ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان أطول اعراضك عني واقل اهتمامك بي ! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه اثر سلسلتك واجيب انا على هذا العنف بلمسة التلطيف . وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهيـــة ألحان احلامي وآمـالي ، وفي المساء كنت أول عين اشاهدها وأول روح استجوبها .

كل ذلك وانت لا تنتبهين .

وها قد هجرتني ، فقدتُك وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني!

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها !

فاذا وقعتِ في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أخاً له ، فانقلبي افعى لساعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمّك حتى تصرعيه قتيلا .

... لكن لا ! لا ، ليس الاشرار الا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم لو كنت تعلمين. وهم أخلق بالرحمة من الاخيار الصالحين. فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً، بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أبٍ فقير صالح لتكوني نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية . زيّني يداً شوّهت خشونة الخدمة جمالها ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبب ! نامي هناك وأسعدي ، ولو ساعة ، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

ان كان لديك ذاكرة تذكر ، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة ، اذكري لحظة ما شهدته معي من المسرات واللهفات ، اذكري واحفظي ما تعرفين .

ولكن ألستِ ابنة الزمان الذي ننسب اليه في ضعفنا كل شيء ، وهو في قوته لا يبالي بشيء ؟ ترين بأي حافظة تذكرين ، وبأي ذهن تتأملين ؟ انما علاماتك مدادٌ قد تحجر ، وعقربك

اصبع يشير الى علامة يجهل منها المعنى ، وانتِ آلة ليس إلا وان كنت آلة الآلات المثلى .

أنتِ ابنة الزمان الناسي ،
وانت مثله لا تذكرين !

يا سيدة البحار !

أسمعتِ ما طيرته عنك البروقُ وما قالته فيك الانبـاء ؟ لوزيتانيا ! أبلغك ما بلغنا وتعرفتِ ما يكتبون ؟

قولي !

أتمردت ارواحُ الكهرباء في الفضـاء وثارت قوات العناصر في اعماق السماء ، ام هجمت أُسد البحر على الاسلاك الممـدودة تحت الماء طالبة من معارف البشر لداء خفيّ شافي الدواء ؟

قولي ! أسمعت بما اذاعته عنك الانباء ؟

لوزيتانيا ، أجيبي !

انت التي خضعت لها رقاب الامواج أعواماً ، ولثمت المياه موطىء قدمها شهوراً واياماً ، انت التي ذاب لحرّ انفاسها جليد البحار القاصيات وابتسمت لقدومها شموس السواحل الدانيات ، ايتها الهازئة بهيجان العواصف ، وثورات اللجج وغضب البراكين، يا صلة العمران النشيطة بين العالمين !

يقال انك غارقة يا ذات الدلال السائر ، ويذاع انك مندحرة يا قاهرة العنصر القاهر ، اصحيح مـا يقولون ومـا هم مذيعون ؟

تقعين صريعة نيران الجبار العنيد ؟ تتضاءلُ منكَ القوى ازاء بطشه فيذوب منك حتى صلبُ الحديد ؟

انتِ التي قطعت المسافات الشاسعـات ببسالة باسمـة وملأتِ وحشة البحار الواسعات بزفرات الانسان واصواته ، انت الآملة بكل شيء لانك يائسة من كل شيء، ايتها المرأة المتنمرة، كيف لم تجيبي على صواعق الانسان بصواعقك المنتقمة ؟

الا تذكرين يوم غادرتِ العالم الجديد تحملين للاجسام طعاماً وتنقلين للنفوس غذاءً ، وتمثال الحرية يحييك بقبسه المحيي ويتمنى لك سفراً سعيداً ؟ يوم شيعتك انظـــارٌ وقلوب وقد اودعتك اموالاً واسراراً وارواحاً غاليـــات ، الا تذكرين ؟ كيف لم تصوني وديعتك سائرةً بها الى مرفإِ الامان سالمة ؟ كيف لم تحرصي على ما ضممتِ الى قلبك ، ايتها العاشقة الصامتة ؟

لوزيتانيا! لوزيتانيا! لقد ذقتِ رعشة الموت ، يا ضحية الحياة! وعرفتِ معنى الابدية ، يا اثر الفكر الزمني !

في احضان المياه الدامسة حيث لا شموس ولا كواكب ولا اقمار ، حيث يتموج من العناصر الاسوداد والاخضرار ؛ حيث لا كلام سوى دمدمة العواصف الهائجة على صفحة المـــاء ، ولا صوت غير صـدى الصواعق المنبثقـــة من جبين الافـق لتخترق وجنة الغبراء ؛ حيث تمرُّ افكار البشر عـــلى الاسلاك

البحرية صامتة ؛ حيث لا انين ولا نواح ولا انشاد ؛ في احضان المياه الغدافية ، في الهاوية المرعبة هناك تندثرين ، تندثرين في كهوف نبتون السائلة وفيها متلاشية تقطنين . هناك تحتضنين وديعتك التي لم تستطيعي صيانتها في الحياة فتكونين في الردى لها من الصائنين .

هل من دمعة تصل اليك مخترقة مياه البحار ؟ هل من قبلة تهبط نحوك مداعبة ما لديك من الاسرار ؟ لكن قد كفنك السكوت الدائم والجمود المتحرك الذي لا قبلات لديه ولا دعابة ولا عبرات .

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

سوف ينتقم لكِ البشر من البشر ، سوف يقيم التاريخ لكِ ولاخواتك جميـــل الآثار ، سوف تنظم لك الاناشيد ويعزف لذكرك طروب الآلات .

واذا سئلت في اعماق الهاوية عن الانسان الذي ابدعك واستخدمك قولي انه ما زال كبير المطامع موفور الغرور ، وانه في غروره قد احبك وبكاك . واذا سألتك روح الهاوية مذهولة : اذاً كيف فتك بكِ ؟ اجيبي بما يقولونه في ربوعنا من ان الذي قضى عليك ليس التحالف الملقب بالانساني، بل المبطاش المنعوت بالجرماني . . .

بكاء الطفل

سمعت الطفل يضحك فاختلجت روحي الاثيرية في جسدي الترابي . ان صوت هذا الرضيع ليرجع صدى اصوات الملائكة، وضحكته البريئة المطربة لتحث المفكر على اكتناه الاسرار الازلية الغامضة .

ثم سمعت الطفل يبكي فهلع قلبي فرقاً وشعرت بشيء كبير يذوب فيه . اواه من بكاء الاطفال ، انه اشد ايلاماً من بكاءِ الرجال !

سمعت الطفل يبكي ورأيت العبرات تتحدر على وجنتيه الورديتين ، فكانت تلك اللآلىء الذائبة جمرات نار تكويني .

ظلّ الطفل يبكي ودلائل العجز واليأس بادية على محياه الوسيم . ظلّ يبكي بكاء متروكٍ منفرد لا يحبه في الدنيا احد . الطفل الحبيب يبكي فكيف اعيد التألق الى عينيه؟ كيف اسمع في ضحكته صدى اصوات الملائكة مرة اخرى ؟

* * *

فدنوت منه متوسلة ،

وضممته اليّ بذراعي التي لم تضمّ يوماً اخاً او اختا صغيرة ، واجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى اطفال الغرباء ، ورفعت عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنما هي تلمس شيئاً مقدساً .

... ثم وضعت على تلك الجبهة شفتيّ ساكبة في قبلة كلّ ما يحوم في جناني من شفقة وانعطاف . ترى من ذا ينبه الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل الطفل الباكي ؟

صمت الطفل حائراً لانه شعر بأن روحاً تناجي روحه . صمت هنيهة ، ثم عاد فحدّق فيَّ بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معاً . أتعرفون كيف تحزن عيون الاطفال ؟ أتعلمون كيف تُعنّف احداق الصغار ؟ حدق فيَّ سائلاً عن اعزّ عزيز لديه ، وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء : ماما ، ماما ! .

* * *

صغيركِ يناديك فلماذا لا تجيبين ، يا ام الصغير ؟ لستِ بالعليلة لاني رأيتك منذ حين تميسين بقدّكِ تحت قبعتك ، والجواهر تطوق العنق منك . انت صحيحة الجسم ، فلماذا لا تسرعين ؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذي لا ترين؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين ؟

عودي من نزهاتك الطويلة ، وزياراتك العديدة ، وأحاديثك

السخيفة ، عودي واركعي امام الصغير واستميحيه عفواً .

لقد خلقتِ امرأة قبل ان تكوني حسناء ، وكيفتك الطبيعة أُمًّا قبل ان يجعلك الاجتماع زائرة .

تعالي اسجدي امام السرير ، سرير الصغير !

اسجدي امام هذا المهـــد الذي لعبتِ بين ستائره طفلة ، وحلمتِ به فتاة ، وانتظرته زوجة ، فما خجلت ان تهمليه أماً . اسجدي امام المهدِ فان المهدَ محجّتك القصوى ! .

اسجدي امام السرير ، ولا تدعي ربّ السرير يبكي لئلا تملأ قلبه مرارة الوحدة ، حتى اذا ما شبّ رجلًا تحولت المرارة كرهاً وصرامة .

اسجدي امام السرير وناغي الصغير ! ان دموع الاطفال لأشدّ ايلاماً من دموع الرجال .

دمعة على المغرد الصامت

ما اسرع ما تتمزق اثواب الورود ، ومـــا اتعس القلوب الشديدة التأثر !

يمرُّ النسيم العليل على الازهار النضرة فتتشقق بوطئه جلابيبها وتنتثر وريقاتهـا . كذلك تكفي ملامسة الالم النفس المنفردة ليثير منها الاشجان ويستقطر من محاجرها العبرات .

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر ، ومن النساء من لا يفهمن الحياة الا بالزينة والغنى وارتفاع القدر .

اما انا فلا هـذه العطايا تغرني ولا تلك المواهب تستهويني . شيء واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك في تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم اكبر من القلب. شيء واحد يذبه اعجابي وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا — هو زهرة نادرة المثال، شمس الذكاء والمعرفة تحييها ، ومياه العواطف العذبة ترويها .

ما اتعس القلب الحساس وما أليَنه لاستحكام الجراح في ثنياته !

* * *

طائر صغير نسجت اشعة الشمس ذهبَ جناحيه وانحنى الليل عليه فترك من سواده قبلة في عينيه . ثم سقطت عليه يد البشر فضيّقت دائرة فضائه وسجنته في قفص كان عشّه في حياته ونعشه في مماته .

طائر صغير احببته شهوراً طوالاً . غرّد لكآبتي فأطربها ، ناجى وحشتي فآنسها ، غنى لقلبي فأرقصه ، ونادم وحدتي فملأها ألحاناً .

امتزج ذكره بحياتي فحلّ عندي محلّ صديق لا تصلني به اللغة ولا يُقربه مني التفاهم الروحي ، بل يعزّزه اليّ حضوره الدائم وان لم يبالِ هو بحضوري ، وصوته الرخيم وان لم يغرّد الا لأن التغريد من طبعه ، وسروره الذي لا يعرف الكآبة ، واصطباره على ضيق الفضاء وقناعته بما قدّر له من النور والهواء.

لما ابكتني الآلام أريته منديلي مبللّا بالدموع فأعرض عني . انما تستدرُّ الدموع ظلمة الاحزان كما يستدرُّ الندى ظلام الليل ، وروح الاطيار شعاع مغرِّدٌ فكيف يتفهّم النور الظلام .

ثم اشرت بيدي الى الاثير البعيد لعلي ارى من طائري زفرة تنبئني عن لوعة في قلبه . ولكنه اخذ يتنقل على قضبان قفصه غير مبالٍ بي ، كمن يقول: « النور لا ينظر الى الشمس والقلب لا يحدّق في الروح لان كليهما واحد . انا لا انظر الى الاثير

لأن فيَّ نقطة منه. اني فيه وان بعدت عنه. كالشاعر الذي يظلُّ محلقاً في سماء الخيال والمعاني وان وثق الناس من انه يجالسهم مصغياً الى احاديثهم ».

واذا اتيته بالازهار نازعة عنها وريقاتها فارشة بها مهبط القفص لعلي ارضيه ، شرع يدوسها استخفافاً متابعاً تغريده. كأنه فيلسوف لا يكترث للصغائر وان جملت منها المظاهر ، ولا يهتمُّ الا بما ينبّه قوى البحث والتفكير في جنانه.

في الصباح كنت افتح عينيّ فيستقبل استيقاظي بالغناء وتسيل موسيقى انغامه على قلبي فتذيبه وتسكره معاً.

وفي النهار كنت اجلس للدرس والتحبير فتشمئز نفسي احياناً من عبوس الكتب ، ويثقل يراعي في يدي كأنه صولجان تنازل عن ملكه ، فيأخذ كناري في الزقزقة والتغريد ، وتأتي جماعة طير من الخارج فتتوحد التغاريد عند نافذتي كما تمتزج الالحان في قلب الامواج. اذ ذاك تبتسم الافكار على صفحات الكتب امام ناظري ، ويتمايل قلمي تمايل الصفصاف قرب الغدير وتنجلي الغيوم عن صفحات نفسي وتطرب روحي.

وفي المساء كان الكنار يصمت إجلالاً لقداسة الظلام فيخفي راسه بين جناحيه ، ويجمد جمود المفكر. ساعتئذٍ تأتي بنات خيالي محاولة الشعر وورد الابتسام منورٌ على شفتيها ومصباح

الشعر متقدٌ في يمينها . فتعقد حلقة وتدور راقصة حول احلامي ومنشدة اناشيدها بألحان سرية كأعماق اللجج — اناشيد عجيبة لم يسمعها الا خيال روحي المتهادي بين اولئك العذارى الراقصات. ولم افهمهـــا الا بحاسة سادسة تنبثق في قلب الشاعر في ساعات الوحدة والكآبة . بينا ملوك الجوزاء تطل من اعالي علاها ناظرة اليّ من نافذتي المفتوحة على آفاق الليل ، والكنار يرقبني بعينيه المخفيتين تحت جناحيه الذهبيين .

* * *

والآن انظر الى القفص !

لقد صمت الطائر المغني ، وجمد الشعاع المحيي ، فـلا ترى في القفص الاقليلاً من الشمس المائتة !

مات الصغير الغرّيد ، مات صغير حشاشتي !

مات عند بزوغ الفجر وقبل انقضـاء الربيع ، ولا يبقى في خـاطري الا اثر من ذلك اللحن المتواضع البديع. شعاعٌ ذهبيٌ اطل حيناً واختفى في كبد الآفاق ، ابتسامة لطفٍ اشرقت ، وما لبثت ان توارت في اخفية الظلام ،

نور فكر ضاءَ ثم اضمحلّ في لجج العدم ، وردة اثير تنفست فعطرت واسكرت . ثم ذبلت .

نغمة حب تموجت ساعة ، ثم تلاشت في هاوية السكينة ،

صديق صغير غرّد فاطربني ، وسكن في جواري فآنسني ، ولما مزق قلبي العالم بشره وصغائره غنى طائري فانساني قبح القباحة وجعلني افكر في كل حسن بهيّ .

هذه قيثارتي فقدت احد اوتارها فناحت بلابلُ انغامها ،

فما اتعس القلوب الشديدة التأثر ! وما امر الجرح الصغير الذي يفتح جراحات كبيرات ! .

* * *

سرُّ الوجود وسر الفناء من يستطيع اكتناههما ؟

في كل ذرة من ذرات الكون ظمأ لارتواء خمرة الحياة، وشوق مبرح للنمو وبلوغ اكمل الحالات الممكنة . فما غاية هذا الشوق ، ولماذا وجد ذلك الظمأ ، اذا كان الفناء كعبة الكمال ونهايته ؟

أتلاشى ما كان في طائري من انس وايناس ؟ أضاعت نفسه الصغيرة الحلوة في الاثير كما امتزجت تغاريده بامواج الهواء وعناصر جسمه بالتراب والماء ؟ أم هو يحفظ جوهر ذاتيته ويظل هو هو في مجاهل الفضاء ؟

علامَ وجد ولماذا قضى ؟

ألهذا الفناء ترقى نوعه حتى صار طائراً غريداً ؟ أعاش يوماً وكان من نصيبي لكي يطربني ثم يوحشني ، يزيل كآبة نفسي

حيناً ثم يتركني حائرة في امره وامري ؟

اين الحكيم يكشف لنا هذه السرائر ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض ؟

وانتم ايها الموتى ، اطياراً كنتم ام بشراً ، ألا تنطقون مرة واحدة لكي تفضوا الينا بما طوي من الاسرار وراء حُجُب الردى ؟ ألا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الاولى من اللغز الازلي السرمدي الكامن في ضمير الوجود ؟

نحو مرقص الحياة

... ولما انتهى دور الوقوف في الكوة وجدتني بين الجماهير ووجهتي مرقص الحياة ، جاهلة من ذا يسيرني وايام وبأي دافع هم يسيرون . فتناولني حيناً دوار الاختلاط بالجمع الكبير ، الا ان الشخصية العامة لم تستول علي فتنغرق في قدرتها عجزي . بل بقيت انا تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والرزايا. ولم يفتأ ذلك الوحي المعذب يهمس في سورته ، وذلك الاحتياج المتوهج يضرم في ناره . ففهمت امراً آخر وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهناك النزاع الاليم والاستشهاد ، واذا وافقتها الانفة وشرف السكوت على مضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجدد مع الايام. . .

نحو مرقص الحياة

في ليـــل مسترخي السدول سرتُ على شط بحر الايام مع السائرين . سرتُ نحو مرقص الحيـــاة في ليلة غار نجمها وادلهم ديجورها ؛ على شط بحر الايام سرت مع السائرين بين ما طمسته عصور وخلفته عصور وشادته عصور ، على شط بحر الايام سرت التمس سبيلًا قريب المنفذ نظيفاً أنيقاً ، لئلا تلطخ الاوحال نعلي الاغريقي الابيض وتمزق السموم وريقات زهرة رأسي ، زهرة الياسمين التي زنتُ بها رأسي .

انوار المرقص هنـاك عيون تناديني ، وفي كل من قدميّ جناحان يحثاني على الرقص قبل الوصول . يا لطول الطريق المتشعبة في الدجى ، يا لطول الطريق ويا لهول الطريق ! أليس من هادٍ يهديني بين جماهير السائرين ؟ .

* * *

جاءني خيال سائلًا وفي صوته لهجة المتأدب — الى اين تقصدين؟

قلت : أرأيت القصر العظيم الذي تتهامس في صدره اسرار الالحان ، ونوافذه ألحاظ انوارٍ تناديني ، أرأيت القصر العظيم ؟

انما اليه اقصد لانه مرقص الحياة .

قال : وما عملي إلا قيادة الناس الى المرقص ، قيادة من شاء من السائرين .

قلت مبتهجة : أصحيح مـا انتَ قائل ؟ ومن انت اذن لتفعل ما انت فاعل ؟

قال يقدم نفسه : انا الغريب . انا الغرباء . انا التـــاجر والطبيب والمهندس والمحامي والنائب والحاكم . انا العـــامل والخادم ، والباني والهادم ، وانا المتهم والقاضي . أتعاطى جميع الحرف ، واعمل للناس وهم لي يعملون . اخدمهم في بابي ليكون كل منهم لي في بابه خادماً. اقدم لهم ما لا يحصلون عليه بدوني، واعقد فيما بينهم بروابط لولاها ما تبودلت فائدة ولا أُشترك في منفعة . انا الغريب الذي تجعله المصلحة قريباً لكل غريب .

قلت : عرفتك يا سيدي . هذا سواري أُعطيكه فقدني نحو مرقص الحياة .

في مركبة الغريب سرت مسافة طويلة . قطعنا جبالاً واودية لم أرَ منها الصعاب ولم تتعثر قدمي فيها بالصخور . واذ وصلنـا سلسلة الاطواد المتساندات في حدود الافق ودَّعني الغريب لان مركبته لا تستطيع المسير ، ودَّعني الغريب ومضى .

* * *

دارُ المرقص اقتربتُ منها قليلًا ولكن بيني وبينها سلسلة الاطواد المتساندات . ورأيتني وحدي . فلذعني البرد ، وهدّدتني دياجير الآفاق ، وشاكتني اشياء لم ألمسها بيدي . واذا خيالٌ يقترب متعمداً مماشاتي . فوقفت واجفة وسألت : من انت الذي تعترضني في طريقي ؟

أجاب وفي صوته شر واستهزاء مهين : مَن انا ؟ انا الدياجير المهددة ، وانا الاشياء الشائكة في الظلام . انا النميمة والاغتياب والوقاحة والشراسة والامتهان . انا الشفة التي تبتسم هازئة لان وراءها انياباً تنهش نهشاً . انا اليـد التي تضرب لتثأر بلا ثأر ، انا القلب الذي يكظم الحقد والضغينة بسبب وبلا سبب . انا الكيد والغيرة والخبث والحسد ، وانا الذم القبيح المختبيء وراء شهد التمليق وتكلف السكوت . انا العدو . انا الاعداء .

قلت مرتعشة : لعلك تعني سواي بهذا الكلام . انا لا اكره احداً ، ولا احقـد على احد ، ولا اعداء لي . واذا صدر مني اذىً فاما عن سهو واما عن سوء تفاهم ، وانا اول من يتألم له بعد حدوثه .

اجاب وقد تضخمت معاني البغض في صوته : بل اياك اعني ، انا عدوك انت ولا استطيع ان اكون لك الا ذلك . عبثاً تتحاشين طريقي ، وعبثاً تتبعين سبل الحذر والتحفظ . سوف

اؤذيكِ بأصغر الاسلحة ، واوفرها اقتــداراً واحدّها مضاء ، وابعدها عن منطقة العقوبة : اللسان .

وبينا كلماته تنقضُ عليّ كالصواعق ، توارى عني ففطنت لنفسي . فطنت لنفسي فوجدتني اقطع نفقاً ضاق منه الجو وثقل فيه ضغط الهواء ، حتى خلته قبراً ملأته عقارب توجعني ، وحيات تلسعني وألسنة لهيب تكويني . سرتُ هائمة والعبرات متحجرات في اقاصي قلبي . ولما عثرتُ على منفذ اخرجني من النفق الرهيب وجدت تحمسي يأساً والاجنحة في قدميّ اغلالاً . خلفت سلسلة الاطواد المتساندات ولم يبق بيني وبين المرقص الا منبسطـات السهول . عندئذ بكيت ثم مسحت دموعي المتسابقات لافسح مجالاً لدموع جديدات . ثم قلت : ترى لاي شيء يوجــد في الوجود شيء ؟ .

* * *

بلطف النسيم امتدّت اليد اليّ . يدٌ ترسل اناملهــا نوراً ، وتبعث من حركاتها حرارة تدّفىء روحي . ولما ان اجفلتُ قال صاحب اليد : هاتِ يدك .

فنظرتُ الى الخيال قائلة : كفاني ما لقيت من الخيالات في طريقي. اني لا اطلب مساعدة احدٍ وقد عدلت عن الذهاب الى المرقص ، فدعني وحيدة في كآبتي دعني في سآمتي ويأسي وحيدة.

قال ــ لا استطيع ان ادعك هنا ، ولا انت تستطيعين إلا قبول مساعدتي

قلت ــ كيف ذلك ؟ ومن انت ؟

قال وكأن ابتسامات الملائكة قد تجمعت في صوته اخلاصاً وحلاوة ــ انا الصديق . انا ذاك الذي يشعر ويدرك ويفهم ويعلم . انا ذاك الذي يعلم . انا التعزية وموضع الثقة والامان . انا الصديق

قلت ــ لا ثقة لي بأحد. وانا لا اعرفك ولا اريد ان اعرفك

قال ــ ارادتك وعكسها عندي سيّان . هذه السهول لا يعرف خفاياها غيري . طريقك فيها وليس لك من دليل غيري. وعندي لك رسالة وقد جئت مرغماً لأبلغها اليك

قلت ممّن هذه الرسالة وما هو مضمونها ؟

قال ــ لا ادري . لقد دفعتها اليّ يد الخفاء ، وحجمها في نفسي يدلني على انها ليست لي. ثم زاد وفي صوته الحاح وكآبة: خذيها هي لك ! وستعلمين سرها ساعة تأخذينها وتناوليني رسالة اخرى لي عندك . كذلك قال لي الصوت المجهول الذي بعث بي الى هذا المكان . خذي ما لك واعطيني ما لي !

* * *

الى بحر الايام حولت نظري طالبة ارشاداً . الا ان صوت

الامواج متشابه لمن لا يسأل ولكن في أنة الامواج لكل سائل جواباً . فارتفع الحبـاب قليلًا قليلًا وغنى لي الامثولة بحروف فضية : « يقسم المرء الناس الى غريب وعدو وصديق . فـذاك يبتغي الدرهم متاجراً متأدباً ، والآخر لا يظهر الا معانداً معذباً منتقماً وهذا يتكلم باسماً ودوداً فينطلق صوته وبسمته الى سويداوات القلوب . ويستقرُّ صوته وبسمته في سويـداوات القلوب . وما كان كل من هؤلاء الا مؤدباً مرشداً الى سبل الحياة ، وما كان كلٌّ منهم الا استاذاً يدرس عليه ما لا يعلم من سواه ، لانه يحمل في يده رسالة خفية قـد اؤتمن عليها من آلهة الغيب والاسرار »

✲ ✲ ✲

على شط بحر الايام سرتُ مع السائرين . ومن منهل الغبطة المتدفق فيَّ سكبت تعزية ومن الشمس المنيرة في جناني وزعت انواراً على الذين معي من السائرين . وزعت من شمس جنـاني انواراً ومن منهل غبطتي تعزية على المحزونين من السائرين

الذكرى الجديدة

اصبحت اليوم وبين يديّ ذكرى جديدة حـــارة تتضوّر وتتأوّه وتتلوى كالنفس المترددة بين البقاء والانتحار. واخذتني منها شفقة فحملتها برأفة الى معبد الاذكار القائم في اعماق روحي

عبرت العتبة متأنية والتهيب يلاشي وقع خطواتي ، وجثوت بين تذكارات متبجرات في شفق التأمل العميق حيث لكل ميتٍ مضى اسم ولكل حدث انقضى رسم . فتقلصت التذكارات من ذواتهن الهيوليـة وحنون عليّ هامسات وقلن « نحن فيكِ وانت فينا »

فردّدت همسهن وقلت « انا فيكن وأنتن فيّ »

ونهضت بالذكـرى الجديدة أعيّنُ لها مستقراً فاستوت على متوسط المذبح ــ واخذت انسق امامها طاقات الازهار ، وانثر على جوانبها فرائد العطر والندى ، واوقد حولهـــا الشموع والمصابيح واذكي نار المجامر بالمر واللبان ، ثم وقفت ارقبهـــا بانشراح اذ رأيت الهدوء يباغت اضطرابها وتوجعها .

وفي النهاية مشيت متراجعة الى المدخل . وبعد نظرة الوداع

غادرت معبد الاذكار وبي ارتياح من ادّى واجباً عزيزاً وفخر من اتى امراً عظيماً

* * *

والآن ستتسارع الشهور حتى تنتظم اعواماً ، وتتساند الاعوام حتى تترتب عقوداً ، ويتقاذفني موج العمر فلا أعي يوماً إلا واثر ذكراي الخفي يبدو في جميع اعمالي

فاذا تكلمت واتخذ صوتي قراراً بعيداً كان متكلماً فيه صوت ذكراي

واذا أحرجني موقف فأحجمتُ، فهممت فأقدمت، فتجاوزته الى غيره كان الفضل لامثولةٍ ألقتها عليّ ذكراي

واذا سرت احياناً بخطوات يخلن لترينهن مفكراتٍ بارض يطوينها ـ كان ذلك التباطؤ هوىً من اهواء ذكراي

واذا استفزني التحمس لمظلوم واستبسلت في الدفاع عن ذي حق فما ذلك الا مكافحة لطغيان استدر الدموع والدماء من قلب ذكراي .

واذا شعرت يوماً بزمهرير البحار المتجلدة يجاور في كياني تأجج الرمضاء المستعرة ، وتلاطم بين جوانحي هبوب الصرصر بلوافح السموم فما ذلك سوى ثورة جديدة تقوم بها عناصر ذكراي .

واذا شمت خيرات العـالم فقراً وازدحام العالم قفراً فلأن لا ائتناس ولا غنىً في غير عالم تبدعه ذكراي .

واذا رآني جليسي وناظراي يخترقانه الى ابعـــاد شاسعات فلأني ألمح بين طبقات السحب خيالاً من ذوي القربى لذكراي.

واذا نما حبي بغتة واحتوى الموجودات بقوة كأن الروح الكلية اتخذته لحظة رسول عطفها على الخلائق فما ذلك الا اختمار فطير ذكراي .

* * *

وعندما اعود الى منشإ الكائنات ومرجعها وارقد بين جلال المدافن في قبري الضيق حيث تنقلب صورتي البشرية تراباً ، فهباء ، وينحل ما ارتبط من اسمي الصغير فلا تمثـــل الميم منه واليـاء سوى حرفين من حروف الابجـدية فحسب ، يومذاك سيكون التماسك والحياة نصيب ذكراي .

وبعدئذ ستمر الذراري الجديدات وتحل محلهـا الذراري اللاحقات . فتجلس فتاة في صباح خريف شجيّ كهذا الصباح على مقربة من نافذتهـا وراء الاستار المخرمة وترسل نظرها الى الافق الذابل يتفتنها سحر الطبيعة ساكباً انوار الفجر في نقيّ السحاب . وتسأل نفسها « اين السعادة ؟ » فتتملكها رغبة فجائية في ركوب تلك السحابة ذات الشكل الطوديّ واثقة من ان

السعادة كلها في اعتلاء متن النور والهواء .

فتاة المستقبل سترجع بعد حين وتضحك من رغبتها قائلة : « ان هذا لجنون ! » .

اما انا ابنة الحاضر فاعلم منذ الساعة ان تلك الرغبة في النفس الصغيرة المجهولة سوف يثيرها عمل الذكرى التي ادخلتها معبد الاذكار ووضعتها على المذبح حارة تتضوّر وتتأوّه وتتلوى كالنفس الحائرة بين البقاء والانتحار .

العيون

تلك الاحداق القائمة في الوجوه كتعاويذ من حلك ولجين .

تلك المياه الجائلة بين الاشفار والاهداب كبحيرات تنطّقن بالشواطىء واشجار الحور .

العيون ، ألا تدهشك العيون ؟
العيون الرمادية باحلامها
والعيون الزرقاء بتنوّعها
والعيون العسلية بحلاوتها
والعيون البنية بجاذبيتها
والعيون القائمة بما يتناوبها من قوة وعذوبة .

*

جميع العيون
تلك التي تذكّركَ بصفاء السماء
وتلك التي يركد فيها عمق اليُموم
وتلك التي تريكَ مفاوز الصحراء وسرابها
وتلك التي تعرج بخيالك في ملكوت أثيريّ كله بهاء

وتلك التي تمرّ فيها سحائب مبرقة مهضبة

وتلك التي لا يتحول عنها بصرك الا ليبحث عن شامة في الوجنة

العيون الضيقة المستديرة ، والعيون اللوزية المستطيلة

وتلك الغائرة في محاجرها لشدة ما تمعن وتتبصّر

وتلك الرحيبة اللواحظ البطيئة الحركات

وتلك التي تطفو عليها الاجفان العليا بهدوء كما ترفرف اسراب الطيور البيضاء على بحيرات الشمال

وتلك الاخرى ذات اللهيب الاخضر التي تلوّي شعاعها كعقافة كلاّب على القلب فتحتجنه ، وغيرها، وغيرها، وغيرها.

العيون التي تشعر

والعيون التي تفكّر

والعيون التي تتمتع

والعيون التي تترنم

وتلك التي عسكرت فيها الاحقاد والحفائظ

وتلك التي غزرت في شعابها الاسرار .

*

جميع العيون وجميع اسرار العيون

تلك التي يظلّ فيها الوحي طلَعة خبأة

وتلك التي تكاثفت عليها اغشية الخمول

وتلك التي يتسع سوادها أمـام من تحب وينكمش لدى من تكره

وتلك التي لا تفتأ سائلة « من أنت ؟ » وكلما أجبتهـــا زادت استفهاماً

وتلك التي تقرّر بلحظة « أنت عبدي ! »

وتلك التي تصرخ « بي احتياج الى الالم أليس بين الناس من يتقن تعذيبي »

وتلك التي تقول « بي حاجة الى الاستبداد فأين ضحيتي »

وتلك التي تبسم وتتوسل .

وتلك التي يشخص فيها انجذاب الصلاة وانخطاف المصلّي .

وتلك التي تظل مستطلعة خفاياك وهي تقول « الا تعرفني؟ »

وتلك التي يتعاقب في مياهها كل استخبار ، وكل انجذاب ، وكل نفي ، وكل اثبات .

العيون ، جميع العيون ، الا تدهشك العيون ؟

* * *

وانتَ ما لون عينيك ، وما معناها ، والى اي نقطـة بين المرئيات او وراءها ترميان ؟

قم الى مرآتك !

وانظر الى طلسميك السحريّين ، هل درستهما قبل اليوم ؟

تفرس في عمق اعماقهما تتبين الذات العليمة التي ترصد حركات الانام وتساير دورة الافلاك والازمنة .

في اعماق اعماقهما ترى كل مشهد ، وكل وجه وكل شيء .

واذا شئت ان تعرفني ، انا المجهولة ، تفرّس في حدقتيك يجدني نظرك في نظرك على رغمٍ منك .

الحكيم وطالب الحكمة

كان يتكلم والطلبة حوله ينصتون .

كان يتكلم عن ذلك الاتجاه الفكري في القرن التاسع للهجرة ، وقد دعاه العرب « فلسفة طبيعية » .

فاستطرد الحكيم قائلًا : « وسمي هذا الاتجاه ايضاً فلسفة على الاطلاق من حيث انه مقابل لفلسفة المتكلمين او الفلسفة الكلامية .

« وكان الطب اهم مباحث تلك الفلسفة المشار الى المشتغل بها بالمزج المعتاد بين لفظتي حكيم وطبيب .

« واستمرت تلك الابحاث الى القرن العاشر ،

« فكان اشهر القائمين بها الطبيب الرازي (المتوفى عام ٩٢٣ او ٩٣٢) .

« عديدة هي الكتب المنسوبة الى الرازي. واكثرها رسالات وجيزة . وقد تشتّت جزء يذكر منها في مكاتب مختلفة .

« ومن تلك المؤلفات كتاب في الكيمياء القديمة اهداه الرازي الى امير خراسان ، منصور بن اسحق الساماني » .

« ولما عجز الرازي عن ان يبرهن عملياً عما اثبته في كتابه مبدئياً ، .

« ضربه الامير على وجهه ضربة أزالت بصره... انظروا الى هذا التوحش ! »

احد الطلبة : « فعل الامير ذلك لان الاعتقاد بفعل الكيمياء القديمة ضرب من الاوهام . وملاحقة الاوهام توجب الردع . فعمل امير خراسان لم يكن اذاً توحشاً بل عقاباً عادلاً » .

الحكيم (بعد سكوت قصير) : « اذن انتَ ترى ان هذا الرجل استحق فقد عينيه لانه كان يلاحق ما دعوته اوهاماً ؟ » .

الطالب — « نعم »

الحكيم (بعد سكوت آخر) — « اذا كانت ملاحقة الاوهام والاعتقاد بها تستوجب عقوبة العمى فمن ذا منا يا ترى ، من ذا مِن البشر يا ترى يستحق ان يكون بصيراً ؟ » .

ليلة عيد النصر

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: عامل الحزن وعامل السرور. على أنّ قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه ...

صوتان اثنان يناديان المرءَ من سحيق أقطاب الحياة: صوت السعادة وصوت الشقاء. فينطلق يعدو والسعادة وجهته. على ان صخور الوعر تهشّم قدميه، واشواك القتاد تدمي يديه، وتأوه الثكل والوداع يفطّر لبّه، وتجهده المسؤولية في معترك الاعمال، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاء حقيقة والسعادة خيال ...

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: الحزن والسرور. على ان قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه ...

* * *

من لا يذكر ذلك النهار والليلة التي تبعته، يوم قامت دول الحلفاء تذيع بشائر النصر بدويِّ مدفع طالما هدر لدى الكريهة مجاهراً باستصغار الحياة واكبار المفاداة؟ من لا يذكر مهرجاناً انتشرت بهجته على ضواحي العاصمة وتقاسم افراحه صاحب

الكف النديّ الذي أجزل للمعدم العطاء وصاحب اليد الفارغة التي اثقلتها أكياس الطعام والحلوى ؟

إلا ان نور النهار باهتٌ لزخرف الاعياد ولا تتمّ الحفلات وتسطع الزينات إلا تحت رواق الظلام الغدافي

وانت ، ايها الظلام ، أمينٌ على مواعدك دقيق في الوفاء بها . ما شرعت الشمس مرةً في الافول إلا دنوت انت متلمساً متمهلاً ، كأنك ذلك المحب المحبوب الذي ينفث في روع الفهِ الكلمة المنتظرة طويلاً قبل ان ينبس بها ، ويقولها بأساليب شتّى قبل انتهاج الاسلوب الاوحد

واليوم ، لدن حلولك ، تتكيّفُ غيوم المغرب متلوّنات وتترجرج خلالها الانجم الزاهرات ، كأن هذه وتلك أوسمة العز واشرطة الفخار على صدور الابطال

واقواس النصر هيفاء تحت بنود ألوية تعاقدن عليها ، والانوار تتغامز متفاهمات عن بعدٍ كأرواح الاحباب . وأجواق الموسيقى تنبثق من جميع الشوارع والزوايا ، والجيوش تجوب الاحياء بطبولها دون ان يعلم من اين تجيء وأنّى تغدو

ولأسراب الطيارات عزيفٌ اذ تحلّقُ في السماوات العلى باعثاتٍ من جوانبه الى الارض بذيول الضياء ، مرصعاتٍ هواءَ الشفق ببسمة نجوم البرايا لنجوم الباري

هوذا مائجٌ على الآفاق لألاءُ المواسم والاعيـــاد . ومن احشاء المدينة يصعد هزج النشوة والظفر . كلُّ شيءٍ يلمعُ ويموج ويهتف ويتلظّى. وقد سرَت اليَّ عدوى الطرب فها انا أعتلي سطوح الحمي لأشرف على فرح الفارحين وأنال منه نصيبي

ولكن ...

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على ان قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه

* * *

اذ بينا الانسان يبتهج حاسباً ان انظمة الاجتماع قد انحلت ونواميس الطبيعـة توقفت حتى انقضاء سروره ، اذا بالنواميس والانظمة نافذة في ادق مغازيها .

... وفي وسط الهتاف المنسجم تعالت نغمة شاذة .

وقفت عنـــد الزاوية المشرفة على الديار المجاورة ابحث عن مصدر الاجيج وما لبثت ان عثرت عليه في فاجعة من فواجع البؤس العديدة ، تلك التي تذوب حيالها لفائف القلوب .

هاك اربعة رجال على احد السطوح المحاذية ، يعالجون امتعة أخرجت من غرفة صغيرة ويزجرون امرأة بينهم تتوسل وتنتحب. مسكينة احدودب ظهرها ، وقبحت هيئتهـا ، ونثر شتاء العمر على هامتها ثلج الشيخوخة . لقد مرت شهور خمسة ولم تؤدِّ بدل

الايجار فتسلح المالك القوي بالقانون وحجز متاعها ليباع بالمزاد .
واما هي فتطرد طرداً من الغرفة الصغيرة القائمة في طرف السطح، وتطرد من المنزل الى تحت قبة السماء .

الجماهير السعيدة ترقب أفاعي النور التي شرعت تتلوّى في الظلام ، ترقبها وتهتف . والشيخة التعسة تجيل الطرف وتبكي .
وما كانت الدموع لتنقلب يوماً ذهباً وفضة يفيها المدين ويرضى بها الدائن !

هذه هي الطاولة التي تتناول عليها طعامها الغث الجافّ .
وهذا هو المقعد الذي طالما جلست عليه تستطلع خبايا الليل البهيم.
وهذه هي المرآة الكالحة البلور التي تُرجع صورة وجهها الكئيب وقامتها الممسوخة ودموعها الغزيرة .

وجيع ، وجيع مشهد دموع اليأس في المرآة الصلبة الباردة!

كم كانت تحرص على هذه الامتعة الحقيرة ! هي تلمسها الساعة ملاطفة ، شاكية ، شاكرة ، آسفة . ألا انها لم تعد لها ، فمن اين هي آتية بمثلها الآن ؟ .

تعاون الرجال على اخراج اكبر متاع من الغرفة فهرولت الشيخة اليهم والزفير في صوتها يقطع الشهيق : هوذا السرير ! السرير الذي طالما انال اعضاءها الكليلة راحة بعد مشقة النهار الطويل .

وُضع السرير بجوار الحوائج الاخرى ، ووقفت هي عنده واستولى عليها الهدوء بغتة ، وطفق رأسها ينحني ببطء حتى استقر عند نحرها . وظلت كذلك كانها في جمودها تمثال الحزن على ضريح ميت حبيب

الجماعات تضجّ والمدافع تقصف ، والاضواء تجعل الليل نهاراً وهّاجاً . غير اني لم اعد ارى سوى نقاب القنوط المجلل وجه الشيخة الذليلة . وكاني لمحت غائرات الكواكب يتشاورن في مؤاساة تلك المرأة الوحيدة — الوحيدة وسط ازدحام الجماهير .

☆

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على ان قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه ...

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق اقطاب الحياة : صوت السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته . على ان صخور الوعر تهشّم قدميه . واشواك القتاد تدمي يديه ، وتأوه الثكل والوداع يفطر لبه ، وتجهده المسؤولية في ميدان الاعمال ، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لان الشقاء حقيقة والسعادة خيال .

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على ان قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه ...

تدافعت الجماهير في الشوارع المؤدية الى حديقة الازبكية لحضور المهرجان الاكبر ، فهل من باحث يهتدي الى الشيخة وسط العباب البشري المتزاحم ؟

فَقَدكِ بصري ولكني لا افتأ اتحزّن لكِ ، ايتها الطريدة . الى اين تذهبين ؟ أتقصدين الى جمعية خيرية وكلهنّ الليلة موصدات الابواب ؟ أم تطرقين باب كريم وكرام البشر لا يعبأون بغير لطيف الجمال انيق الهندام ؟ أم تهجعين في مدخل منزل عظيم والناس كالشرطة يعتبرون من لا منزل له لصاً متشرداً ؟ أم تبكين كما رأيتك باكية ، وتمدّين يدك المرتعشة للتسوّل فيعرض عنك الفرحون لان نائحاً يعكّر صفو الانس مكروه بحق ؟ أم تستنهضين همة صديق ولستِ بالشابة المليحة ليتحمس الكِ المتحمسون ، ولا بالوجيهة القديرة ليتقرّب اليك المتقربون ؟ أم انت وطّدتِ النفس على زيارة النيل السخي الذي يجود ولا ينتظر وفاء فتجدين من امواجه صدراً ليّناً ، ومن امواهه عطفاً عذباً ، وتباركين موتاً احتضنكِ عندما نبذتك الحياة ؟

✲

اياً كانت وجهتك قفي قليلاً لاودّعك

نظري بعيد عنكِ وانما هو حائم حولك وتتبعك شفقتي

الدامية ، تتبعك روحي المتفطّرة معك

روحي المنفطرة تعانقك ، ايتها المسكينة . أشاعرة انتِ بوجودي ؟ انا الفتاة استطيع ان اكون لكِ لحظة امّا ، ايتها الشيخة الطريدة . انت الان ككل سقيم تحتاجين الى حنو الام وما كان كل ذي ام نائلاً من الحياة حنوّاً ! سأهمس في مسمعك كلمات حلوة لا تعرف سرها سوى شفاه المظلومين ، وسأمسح عبراتك بأنضر ورود البستان . ثم أهدي الوردة وما امتصته من لآلىء القلب الى آلهة العبرات والاشجان

لا تشكي الوحدة فاخوانك الاشقياء كثير . ولا تندبي حظك فانواع العذاب جمّة وصنوف الذل لا تحصى . لستِ بالقبيحة ما كان لكِ جمال اليأس الرائع ، ولا انتِ بالعجوز ما ظل منها البكاء فيك فتياً كما كان منذ فجر العالم .

فيكِ يتجلّى الليلة الفرد الجوهري بينما الفرحون يمثلون الفرد المجازي . انت الذات الجليلة المفجّعة وهم الذات الهزلية الطائشة . انت الحقيقة الناضجة وهم الوهم الخالي . انت قطرة الحزن التي توازي بحر السرور ، لان وراء اللهو والجزل فراغا وخلوّاً . ووراء الحسرة والقنوط نفساً زاخرة بالعواطف ، متسعّرة بالحرق ، رويّة بالدموع يتناظر في غورها جبّارا الحياة : الممكن والمستحيل .

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق اقطاب الحياة : صوت السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته . على ان صخور الوعر تهشم قدميه ، واشواك القتاد تدمي يديه ، وتأوّه الثكل والوداع يفطّر لبه ، وتجهده المسؤولية في معترك الاعمال فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لان الشقــــاء حقيقة والسعادة خيال

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على ان قطرة حزن في عمقها ترجح بحر سرور في اتساعه ...

الطبيعة المعمرة المدمرة

بتلك الشجيرة الخضراء كنت أزيّن ردهة الاستقبال كل يوم عيد وكل يوم اجتماع

وفي احد الامساء ، وقد خرج الزائرون ، سمعنا جلبة سقوط وتكسر ؛ فسارعنا ، فاذا الهرّة البيضاء واقفة في الظلام وقد دهشت لما نتج عن تلك القمزة الواحدة من قمزاتها العديدة

وكان الاناء الخزفي قد انقلب وتحطم فتبعثرت أجزاؤه ؛ وانفصل عنق الشجيرة المليح عن جذعها وتجندل بعيداً كمن يعلم انه صائر الى لا شيء ، بعد الذبول والجفاف ، مع وريقات أنيقة لصقت به فتخللت خضرتها تلك الخطوط الدقيقة من حمراء وبرتقالية وفستقية وصفراء

فجمدت جمود الآسف

ثم وضعت العنق الطويل وما انتشر عليه من بهيج الوريقات في آنية طافحة بالماء ، لعله يستبقي حسنه أياماً اخرى او ساعات. وأحكمت الجذع وما تشبّث به من متراكم التراب في اناء خزفي جديد ، وجعلت له مكاناً توفّر فيـــه الهواء والنور

والحرارة .

وما انقضى اسبوع وجاء آخر الا وبدت طلائع الوجود في ذلك الجذع المجدوع ، وأسفرت عنـد جوانبه بسمات خضراء

فزدت تعلقاً به وحرصاً عليه ، أرقب فيـه تفرّع قدود الاغصان وتكوّن صور الاوراق ؛ ولم يعد ينتظر سوى مرور الايام لينمو ويتكامل

فوقفت اعجب به ذات صباح وهتفت قائلة :

-« بورك بك ، ايتها الطبيعة السخية الوهوبة ! ما أتلفت يد الضياع ودمرت الا رممت يد العطاء منك وجدّدت . ستُردّ الي بفضلك شجيرتي الحسناء ، أضعها في صدر الردهة فتبدو لي الردهة بها ايواناً صغيراً . بورك بك ايتها الطبيعة الملبّية الشفيقة ، لان اشارتك الاخيرة هي دوماً اشارة البذل والبناء ! »

في هذه اللحظة أقبلت طفلة الهرة المولودة حديثاً تفتح عينيها المغمضتين للتعرّف بما حواليها . ومـا لبثت ان لمحت الآنية الخزفية امامها: فمدت اليها يدها الصغيرة وقفزت الى حافتها تشمّ وريقات النبتة المتجددة .

...ترى ، أتأتي البنت ما سبقتها الام الى فعله ؟

يوم الموتى

ريح خريفية تعصف في الاشجار فتنزع عنها الاوراق وتسفي التراب فتذرّه في الجو عجاجاً ، واشجان خريفية تشتد في مكامن النفس فتثير فيها تذكارات وتهيمن على تذكارات .

اليوم تجرحني الاصوات والخطوات والنظرات وارى كل حركة يأتيها الناس تمثيلاً . كأنما الحكمة المثلى لديّ في تكتم الصور المتوارية تحت صُدرة القبور، وفي هجوع الاشكال المتقلصة لحين ما من احكام البعث والنشور .

اليوم عيد الموتى وهذا شهر الموتى . هـــذا شهر الكآبة المزدوجة : كآبة الحسرة والدموع عند الشعوريين وكآبة التأمل والتبحُّر عند الباحثين والمفكرين . للأموات من البشر يعيّـد المعيّدون . وأنا أعيّد لمن عاش ومضى ، وعلم ونسي ، ولما ظهر واختفى ، وابرق وانطفأ اي لكيفيات الحياة المعروفة والمجهولة جميعاً .

اليوم عيد جميع الموتى .

عيد العيون الجامدات ، والقلوب الساكنات ، والاوراق

الذابلات ، والآمال الذاويات؛ عيد شريف الانكسارات وذليل الانتصارات ؛ عيد آلهة تزلّف لها العبـــاد ونحروا على هيا كلها الافئدة قرابين ، ثم قاموا يدكون قوائمهـا ، ويحرقون معالمها ليدوسوا رمادها بأقدامهم الطاغيـات ؛ وعيد مذاهب شيدت صروحها في مجاهل الغابات وعلى قمم الراسيات بما تجمد من دماء القلوب وتصلب من لهب العواطف ، ثم انبرى مؤمنو البـارحة يصيحون بين جدرانها صياح الهادم الاثم . عيد كل ما قُدس من رمز ثم احتقر ، وكل ما فوخر به من رأي ثم دُحر . عيــد مدنيات دوّن العلم ارتفاعها واندثارها ، ومدنيات غوّر ذكرها في غلس التاريخ وما زالت حية قاهرة في استمداداتنا وميولنا . عيـد عوالم خبت انوارها في الاطار الفلـكيّ ، وتطايرت غازاتها وتفتتت اجزاؤها متفرقة في المدى الشاسعات لينضمّ كلٌّ منهـا الى ما يجذبها من عنصر او كوكب . وعيد شموس طالما بعثت بالنور والحرارة الى انظمة جليلة فصفرت واياها في الهاوية الرهيبة صفوراً ، وليس من يلتفت لغيابها . لان عين العلم وان تسلحت بالتلسكوب ضعيفة عاجزة، ولان الاكوان لاهية بأنانيتها الحيوية، مسوقة إلى تتميم دورتها المفروضة . فلا يستوقفهـا في سبيلها ما يلتهب من شمس ، ويتحطم من عالم ، ويحترق من سيّار.

بل اليوم عيدكِ ، ايتها المجرّة العظيمة ، بما تراكم وتلازب

فيك من ملايين الكواكب المتتابعة التكون والتحوّل . وانت على هذه الضخامة لست غير جزء من الخليقة الشاملة حيث تتعاقب الاكوان الفخمة فتملأ الفضاء الذي لا يُحد ، وتتجدد في كل اتجاه على ابعاد لا يدركها قياس ، ثم تبلى وتختفي في ظلمات اللانهاية .

* * *

ولكن قبل ان يطير الفكر منا الى ابراج خاويات وشموس متجلدات ، ما ذكرنا الموت الا احتضنتكم قلوبنا ايها النازحون الراقدون . ما ذكرنا الموت الا سمعناكم متكلمين ، وخلناكم باسمين ، وشعرنا بنبضات قلوبكم في راحات ايدينا . فنسألكم « اين انتم » فتجيب القبور « ها هم في حماي » . فتفرغ قلوبنا من عناقكم وراحاتنا من نبضات قلوبكم ، ولا يرن في مسامعنا غير تنهد الاسى ولا تبصر عيوننا غير سائل عبرات .

* * *

سرتُ البارحة بين الاضرحة متمهّلةً استنشق جثمان الماضي الفسيح ، فتاقت اعضائي الى الرقاد في ظلّ الغصون الحنونة . يا لغرور الذين اقاموا هذه القبور المرمرية ناصبين حواليها التماثيل الفنّية ! عجّانُ المنايا يسوّي من كبريائنا الصعود والهبوط اذ يُلقي بنا في معمل التحوّل العام، فتعودُ ايدينا الحقيرة الى اعلاء

الآكام وحفر الحفرات تمييزاً لذليل الاسماء ! وبدلاً من ان نبعث بذوينا الى باريهم على ما يريد ترانا نوثقهم بكتائف التظاهر والدعوى ، ونثقل كواهلهم بالجدران والتماثيل خوفاً من ان نكون بسطاء متواضعين ولو في احزاننا فحسب! ولكنّ اصوات الموتى تتشابهُ وراء القبور البسيطةِ الجليلة والقبور المزخرفةِ الحقيرة : هذا ضريح شهمٍ عظيم سألته' حكاية نزيلهِ فقال : لقد عاش وأحبَّ وتعذّب وجاهد ثم — قضى .

وهذا مضجعُ فقير ينزوي وراءَ المضاجع سألتهُ عن ضَيفه فاجاب : لقد عاش وأحبّ وتعذّب وجاهد ثم — قضى

وهذا قبر فتاةٍ لم يرَ الناس منها غير اللطف والبسمات وفي قلبها الآلام والغصّات ، وهو كذلك يقول : لقد عاشت واحبّت وتعذّبت وجاهدت ثم — قضت .

وهذا قبر امرأةٍ صالحةٍ اسعدت زوجها وابناءها جميعاً ، وصوتهُ يقول : لقد عاشت واحبّت وتعذّبت وجاهدت ثم — قضت .

وهذا قبر من كان عالةً على نفسه وعلى ذويهِ ، وعلى كلّ محيطهِ حتى من لقيه صدفةً في طريقهِ ، وصوته يقولُ : لقد عاش واحبَّ وتعذّب وجاهد ثم — قضى .

وهذا قبر طفل رضيع لم يحُسب عمره بغير الايام، وهو يقول

هذه هي حكاية الموتى وهذه هي حكايتنا نحن اللاحقين بهم ،

هذه هي حكاية الموتى علـــى الاطلاق ، حكاية الظالم منهم والمظلوم ، والكبير والصغير ، والذكي والمعتوه ، والاحمق والحكيم ، صاحب القبر المرمري الذي لا تبلغ الهـامات عتبته ، وصاحب المضجع الترابي الذي تدوس هامتهُ الاقدام. كلٌّ منهم عاش مرغماً ، واحبَّ مرغماً ، وتعذّب وجاهد بامكانه الفطريّ والاكتسابي ثم ــ دعاهُ الردى فلبىَّ صاغراً

* * *

واذا تحوّلنا عن هذه المقبرة ذات الحدود الى مقبرة الخليقـة التي لا حدود لها ، سمعنا من الزهرة والشجرة والحيوان والانسان والشعب والجنس والمدنية ، ومن كل سيّارٍ ومن كل شمسٍ ، ومن كل نظام شمسي ، هذه اللازمة التي تأبى التغيّر : لقد عاش بقوّةِ الحياة التي كوّنتهُ وشكّلتهُ وادمجتهُ في فصائلها . ولقد أحبّ بقوة الجـــاذبية الشفيقة العنيفة التي تضمد جراح القلوب لتمزقها ، وتواسي أوجاع الارواح لتضنيها، وتجلو للعقول اسراراً لتثقلها بغوامض الاسرار . ولقد تعذّب لان العمر ارتفـــاع وانحدار ونموّ وتناقص ، وبين هـذه المناقضات المحتّمة يتفطّر الفرد في احتياجه الى التوازن والثبات . ولقد جاهد لان الجهـاد وسيلة يزعمها موصلة الى الثبـات والتوازن . وهي لا توصل الى

غير نفسها ، لو علم العالمون ! لقد جاهد ضد العناصر وضد الفصول ، ضد الاجناس وضد الجماعات ، ضد الاصطلاحات المتحجرة والمجازفات المتهوّرة . ضد الغنى والفقر معاً ، ضد الجمال والقباحة وضد البله والذكاء . جاهد ضد الغرباء ، وضد الاعداء، وضد الاصدقاء . وجاهد ضد أحبّ الاحباب . وكان أوجع جهوده ضدّ ذاته — تلك الجهود التي تكسّر لولب القدرة وتبيده بينا الجهود ضد العالم الخارجي تعزّزه وتقويّه . ثم عندما تجلّبت منه القوى بالحياة والحب والعذاب والجهاد قضى — اي التحف باللغز الاعظم ، واسدل على حقيقته الظاهرة حجاب الخفاء ، وغاص في مغذّية الكائنات ليتقمّص في النار شرارة ، وفي الهواء نسمة ، وفي الماء قطرة ، وفي التراب ذرة . وما هي الذرّة ؟ أهي مادة أم هي قوة ؟ أهي فاعلة أم هي منفعلة ؟ أهي بصيرة أم هي كفيفة ؟ ولماذا تتجمهر ومثيلاتها لتشكل الصور ثم تحلها ، ثم تشكلها ثم تحلها ؟ أفي المادة كل وعود الحياة وكل قواها ، ام في الحياة كل وعود المادة وكل قواها ؟ ولماذا تتعاون الحياة والمادة حتى تصيرا في دماغنا ادراكا ، وفي جناتنا عاطفة ، وفي اعضائنا حركة ، وفي الحاظنا نوراً ، وفي محاجرنا دموعاً ؟ ماذا تريد منا الحياة وماذا تبتغي المادة منا ؟ ومتى تنتهي هذه الالعوبة السحرية التي تبتدىء بالاهتزاز ، وتستطرد بالاهتزاز ، ولا اهتزاز ينهيها ؟

والآن اذ اسمع الرياح تعتول وتندب ، والاجراس تطنّ طنين الغم والكرب ، والارغون يعزف الحان التفجّع والانتحاب ؛ ثم تتراءى لي أودية وجبال ُزرعت فيها العظام منا وامتدت الاعصاب ، وتنبسط لمخيلتي سهول ومروج تغذّت من اجسامنا وارتوت بدمائنا ، وتضجّ حولي اصوات الباكين الحزانى ، وتتزاحم امام ناظري جميع مشاهد الفراق – فراق مرّ ُيحتّمه الموت وفراق أمرّ تقضي به الحياة . فأذوب وأتضاءل ثم اذوب حيال بحر الشقاء العام حتى البث ذرة واحدة متوجعة متلهفة متفجعة تتوق الى التلاشي والنسيان – اذ ذاك تنقشع عن عاقلتي حجبُ الجهل والانانية ، وتلقي بي يدُ الروح الاعظم في فضاء اللانهاية ، ويحملني جناحان قويان الى حيث اجدُ الموت حدثاً عرضياً والفناء خيالاً زائلا . اذ ذاك ينمو كياني ويتعالى ويعظم فيتنشق هواء الحياة الواحدة السائدة في كل مكان .

من اعماق اللجج الى اعالي الجبال ، من نواة السلب المبعثرة في المادة الخرساء الى نواة الايجاب الكامنة في بوارق الكهرباء ، من ذرة الرمل ، الى الشجرة المزهرة ، الى الهواء الملامس افنانها ، الى طير سابحات تحت الغمام ، الى فتيت شموس تلبّد في حضن المجرّة ، الى ابعادٍ لا يُدركها غير الخيال العظيم ، الى ما وراء ذلك من اطار الخليقة السلبي ، الى كل نقطةٍ من كل مسافةٍ في

كل مكان من كل زمان في كل ابدية تتموّجُ حركةُ الحيــــاة النضناض متتابعة منقطعة ، متفردة متنوّعة ، متظاهرة متوارية ، متلاطفة متخاشنة، متمهلةً متضاعفة ، متشدّدة متعادلة، ابدية ازلية سرمدية . صوتها العجيب يتراجعُ من حنجرةٍ الى حنجرةٍ، ومن أفق الى افقٍ ، ومن عالم الى عالم ، ومن سكوت الى سكوت مولولاً مع الاعصار ، هامساً مع النسمات ، نادبــاً مع البحار ، مدمدماً مع العناصر ، متمتماً مـــع ثلاثمائة الفٍ من اجناس الحشرات ، صامتــاً مع جميع المكروبات والذرّات ، آجًّا مع المجهولات ، ملعلعاً مع الآلات ، حافًّا في حفيف الافلاك ، داويــــاً بجميع انغامه ونبراته في ملايين الملايين من اصوات الخلائق .

تكسونا الحياة كرداءٍ سحري لا تبلى خيوطه وتحضننا السماء فنحن فيها مقيمون قبل الحياة وبعد الموت ، والجحيم والفردوس في نفوسنا يتناوبان . تغزونا الحيــاة في الاندحــار وفي الانتصار ، فنحن ابطالها ونحن ضحاياها سواء اشئنا ام لم نشأ .

ما الارض والبحار وأبعادُ الافلاك، سوى مدافن دهرية ـ. انما هي في الوقت نفسه معاملُ توليدٍ وتكوين. نحن نخلّد الحياة بفنائنا وهي تفنينا بخلودها. ونحن ابداً كذلك حتى تثلج الشموس وتضمحل قوى العناصر وتتفكك عرى الاكوان سابحة في الفناء

الانور ، في البقاء الاوحد ، في حضن الله .

اذاً أعيدُ الموتى اليوم ام عيد الاحياء ؟

انما اليوم ككل يوم ، عيد النـــاموس الفرد الذي يعجن اشكالاً تبدعهـا الطبيعة العلماء . يجبلهـا باليد الواحدة التي تدعى التكييف قطعاً ذات صور معيّنة . ولا يفتأ يستخرج الجديد من القديم ويدغم القديم في الجديد ، ليتمّ للاحقاب تعاقبهـــا بالبشر والافلاك والزمان في مجاهل اللانهاية الخالدة .

نحو مرقص الحياة

... ودرجت في التيار المكتسح الملايين فبلغت جوانب الميدان الفسيح الذي تلجه الافواج من جميع المناهج ، حتى اذا امتها الايام والاختبار تغلغلت فيه شيئاً فشيئاً . في ذلك الميدان تقيم الحياة مرقصها ليس في قصر واحد كما ظننت قبلاً ، بل في مئات الالوف من القصور والمنازل والاكواخ وما بينها من الصحاري والواحات والجبال والوهاد والبحار . وما كنت اخاله ألحاظ نور تناديني وجدته مزيجاً من مشاعل الانتصار ، واضواء الافراح ، ولمعان الاساحة ، وشموع الجنازات، ووقود التدفئة، ومسارج النذور ونباريس الاجتهاد والعناء . والنشيد الذي حسبته أهزوجة طرب وحبور كان خليطاً هائلاً من صراخ الصرعى وعويل الهلكى واستغاثة الغرقى ، وأنين المحرومين واسترحام المتوجعين ، وتهليل الفرحين والسعداء والمستفلحين ، وابتهال الاتقياء والزهاد والمصلين، وزفير الحفيظة والشماتة ، وصعق التحريض والتهديد والاستنزال ، وحمد القناعة والشكر والرضوان — والوف الوف الاصوات المؤلفة نشيد الحياة الرائع المستديم .

والقدرة الخفية التي اوقفتني في الكوة ثم دفعت بي الى السير وأوصلتني الى هذا الميدان ، هي التي سوتني والذين جعلتهم حولي يصفقون ويلطمون . فتذمرت مع الضعفاء وانتصرت مع الاقوياء، وتواكلت كالطفيليين وتنشطت كالنبلاء فعرفت كيف يعز الناس وكيف يذلون ، كيف يجوعون ويشبعون ، كيف يؤلمون ويتألمون ، كيف يستبدون ويظلمون . عرفت عبودية المساكين وحسدهم ولجاجتهم

واستقلال الاغنياء واناقتهم وجفافهم، عرفت ان لكل امرئ غماً وان هش وبش، وان لكل عـاتق حملاً وان تقوم وانتصب، وان لكل من اسرى الحيـاة اطماعاً ومطالب وشكايات: فواحد يبتغي الفوز بالحذق والجهود، وواحد يكد ولا ينال شيئاً، وواحد لا يتعب ولكنه ينال كل شيء، وواحد يصيح بأنه ذو حق ونصيب وليس له الكفـاءة والاجتهاد اللازم للظفر بذلك الحق والتمتع بهذا النصيب. وبينا جابة الاصوات تتعالى من كل صوب يطغي المد جارفاً الجماهير والانظمة والجهود والمطامع فيحتضنها من الحياة العباب الرجاف كما يحتضن الخضم الزاخر ملايين القطرات التي لا تعد ولا تحصى – وتظل الحياة محيية مرقصها حيث تتابع الاشباح والصور واللغو والحركات والانوار والظلمات...

وها انا ذي أسير في اطراف مرقص الحياة معانية مـا يعـانيه مساجين الوجود جميعاً، يبرح بي واياهم الشوق الى السعادة وأتلقى مثلهم ذلك الوحي المتجدد بوجودها. وعند كل خطوة خيبة وكمد، وعند كل خطوة امل وجذل، وعند كل خطوة روعة حيال هـذا السيل الحيوي الذي يتدفق مرغياً مزبداً الى حيث لا يدري. وعند كل خطوة استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها، عن معنى الألم وغايته، عن معنى الطرب وغايته. وعند كل خطوة سؤال للكون لمـاذا وجدت النفس الانسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رناناً عميقاً وجيعاً...

كن سعيداً

في هيكل الاشجان الانسانية وقف الزعيم الاكبر يخطب في القوم فسمعته يقول :

« اذا كنت غنياً كن سعيداً ! لان مزاولة الامور الخطيرة هيئت لك وكنت مشكور الصالحات مرجوّ الجميل . لقد عزّ جانبك ، ومُنعت حوزتك ، ونُشر رواق العز فوق ذمارك فتمّ لك وجه من وجوه الحرية والاستقلال . وان كنت فقيراً كن سعيداً ! لأنك سلمت من شلل معنوي ابتلي به من دانت لرغبته جميع المطالب ووقيت ما عُرِّض له السريُّ من حسد وكرهٍ ، فلا تتلظى الصدور لنعمتك ولا يُنْظر الى متاعك بعين مريضة .

« اذا كنت محسناً كن سعيداً ! لانك ملأت الايدي الفارغة ، وسترت الاجساد العارية ، وكوّنت من لا كيان له فرضيت عن نفسك وودت اسعاد عشرات ومئات لتتضاعف مسرتك النبيلة الواحدة بتعدُّد المنتفعين باسبابها . وان عجزت عن الاحسان كن سعيداً ! فقد اجتّلت ساعة تشهد فيها نكران الجميل ممن صانعت فاتخذ المعروف سلاحاً يهددك به حاسباً التجني شجاعة

والسفـــــاهة حذقاً . تلك الساعة لا بد من مرورها فتتوترّ لها اعصابك ، ويفور سخطك ، وتقسو عواطفك ، ويجفُّ منهل كرمك ، وتحتقر الانسان وتيأس من اصلاحه قبل ان تصل الى قمة الغفران السامي والتغاضي الحكيم .

« اذا كنت شاباً كن سعيداً ! لان شجرة مطالبك مخضلة الغصون ، وقد بعُـــد امامك مرمى الآمال فتيسر لك اخراج الاحلام الى حيز الواقع اذا كنت بذلك حقيقاً . واذا كنت شيخاً كن سعيداً ! لانك عركت الدهر وناسه وأُلقيَت اليك من صدق الفراسة وحسن المعالجة مقاليد الامور : فكل اعمالك ان شئت منافع ، والدقيقة الواحدة توازي من عمرك اعواماً لانها حافلة بالخبرة والتبصر واصالة الرأي . كأنها ثمرة الخريف موفورة النضج ، غزيرة العصير أُشبِعت بمادة الاكتمال والدسم والرغبة .

« اذا كنت رجلاً كن سعيداً ! لان في شهامة الرجولة يتجسم معنى الحياة الاكبر . واذا كنت امرأة كن سعيداً ! فالمرأة منشودة الرجل ، ونبلها موضع اتكاله ، وعذوبتها مستودع تعزيته ، وبسمتها مكافأة اتعابه .

« اذا كنت رفيع الحسب كن سعيداً ! فقد فزت بثقة الجماعة دون ان يوصي بك أحد . وان كنت وضيع النسب

كن سعيداً ! لانه خيرٌ لك ان تكون مؤسس عيلتك ورافع عمادها الذي تعرف به وتفاخر بذكراه ، من ان تكون احد ابنائها المرغمين بطبيعة الحال على حمل اسمهم ولا فضل لهم باعلائه.

« اذا كنت كثير الاصدقاء كن سعيداً ! لان ذاتك ترتسم في ذات كل منهم . والنجاح مع الصداقة ابهر ظهوراً والفشل اقل مرارة . وجمع القلوب حولك يستلزم صفات وقدرات لا توجد في غير النفوس ذات الوزن الكبير ، اهمها الخروج من حصن انانيتك لاستكشاف ما عند الآخرين من نبل ولطف وذكاء . واذا كنت كثير الاعداء كن سعيداً ! لان الاعداء سلّم الارتقاء وهم اضمن شهادة بخطورتك . وكلما زادت منهم المقاومة والتحامل ، وتنوّع الاغتياب والنميمة زدتَ شعوراً بأهميتك ، فاتعظت بالصائب من النقد الذي هو كالسم يريدونه فتّاكا ولكنك تأخذه بكميات قليلة فيكون لك اعظم المقويات. وتعرض عما بقي ، وكان مصدره الكيد والعجز، اعراضاً رشيقاً. وهل يهتم النسر المحلّق في قصيّ الآفاق بما تتآمر له خنافس الغبراء؟

« اذا كنت صحيحاً كن سعيداً ؟ فقد استبان فيك توازن الناموس الكلي وانسجامه وأهّلت لمعالجة المصاعب ودحر العقبات . وان كنت عليلاً كن سعيداً ! لانك مسرح تتقاتل فيه قوتا الكون العظيمتان فالغلبة لما تختار منهما والشفاء موقوف

على ما تريد

« اذا كنت عبقرياً كن سعيداً ! فقد تجلّى فيك شعاع ألمعي من المقام الأسنى ورمقك الرحمن بنظرة انعكست صورتها على جبهتك فكراً ، وفي عينيك طلسماً ، وفي صوتك سحراً . والالفاظ التي هي عند الآخرين أصوات ونبرات ومقاطع صارت بين شفتيك وتحت لمسك ناراً ونوراً تلذع وتضيء ، وتحرق وتهيء ، وتخجل وتكبر ، وتذلّ وتنشط ، وتوجع وتلطّف ، وتسخط وتدهش ، وتقول للمعنى « كن ! » فيكون . وان كنت خاملاً كن سعيداً ! لان الالسنة لا ترهف حدها لتذكرك والانظار لا يستعر فيها لهيب التفحص وحب المنافسة اذ تتجه اليك . هاك القمة فاقتحمها ان كنت كفوءاً . والا فاقنع بانك جزء مهم من اجزاء الكون تستعملك الكفاءة وقوداً . فالايوانات الباذخة لا تقوم بغير الحجارة الصغيرة ، وانت متمتع براحة لا ينعم بها من لا ترتوي شفتاه بغير ماء الحياة ولا تغتسل روحه بغير سيول الالهام

« اذا كان صاحبك وفياً كن سعيداً ! لان الايام حبتك بكنز من أثمن كنوزها . وان كان خائناً كن سعيداً ! لانه لم يكن على استعداد لاستماع امثولة خفية تلقيها عليه نفسك . ولا يغادر امرؤ حظيرة المحبة الا ليفسح مكاناً لمن هو خير

منه وأجدر

اذا كنت حرًّا كن سعيداً ! ففي الحرية تتمرّن القوى وتتشدد الملكات وتتسع الممكنات . وان كنت مستعبداً كن سعيداً ! لان العبودية افضل مدرسة تتعلم فيها دروس الحرية وتقف على ما يصيرك لها أهلاً

اذا عشت في وسط يفهمك ويقدرك كن سعيداً ! فهناك اكتسبت كل يوم شباباً جديداً وقوة جديدة ، ونمت روحك ثم نمت حتى اذهلتك منها الآفاق والبحار . وان عشت في وسط متقهقر منحطّ ، ايها التعس ! كن سعيداً. لانك في حلٍّ من ان تخلق لك جناحين تطير بهما فوقه ، الى حيث تبدع من اشباح روحك عالمــاً حوى قوتاً لجوع فكرك وشراباً لظمإ جنانك

اذا كنت محبًّا محبوباً كن سعيداً ! فقد دلّلتك الحيـاة وضمتك الى ابنائها المختارين ، وأرتك الالوهية عطفها في تبادل القلوب . واجتمع النصفان التائهان في المجاهل المدلهمة فتجلت لهما بدائع الفجر وهنأتهما الشموس بما لم تهتد بعد اليه في دورتها بين الافلاك ، وأفضى اليهما الاثير بمكنون اسراره . لذلك هما يتأملان حيث يتصابى الخالي ، ويصمتان حيث يتكلم ، ويمزحان حيث يجدّ ، ويتفرسان في خطوط البقاء حيث لا يلمح هو خيالاً .

وان كنت محبًّا غير محبوب كن سعيداً ! لان النابذ يحب المنبوذ في أعلى طبقات كيانه ـ حبًّا لا يدانيه افتتانه بمن يهوى . والهجران حالة جمة المعاني والالغاز ترقّق ما ضخم من الرغبات وتصفّي ما عكر من الانفعالات حتى يغدو الفؤاد شفافاً نورانياً متلألئاً كآنية تتناول فيها الآلهة كوثر الخلود . ولسوف تفوز بمن تريد ان لم يكن في تلك الصورة الانسية المتباعدة ففي سواها . تهيّأ للحب مهما أثقلتك المشاعر لان للحب هبّات وسكنات ، وانت لا تعرف ساعة مروره . كن عظيما ليختارك الحب العظيم ، والا فنصيبك حب يسفُّ التراب ويتمرّغ في الاوحال ، فتظل على ما انت او تهبط به ، بدلاً من ان تسمو الى ابراج لم ترها عين ولم تخطر عجائبها على قلب بشر . لان هياكل مطالبنا انما تقام على خرائط وهمية وضعتها منا الاشواق

كن سعيداً لان ابواب السعادة شتى ، ومنافذ الحظ لا تحصى ، ومسالك الحياة تتجدد مع الدقائق . كن سعيداً دواماً كن سعيداً على كل حال !

* * *

انفضّ القوم فاذا الجماعات تقف عند بقية جدار خارج الهيكل لتنتحب وتبكي ، ومضى غيرها في سبيله ضاحكاً

هازئاً . فنظرت الى شبح انتصب قربي نظرة استفهام فقال :
« انا روح الخطاب جئت ارى تأثيري في الناس »

قلت : « اذن انت تعلم ما هذا الذي يبكي الناس عنده »

قال : « هذا جدار الدموع »

قلت : وهل هؤلاء يهود وهل نحن في اورشليم ؟ »

فقال : للانسانية كما لليهود « جدار دموع » تبكي عليه وتتحسر »

قلت : ولماذا يبكي هؤلاء بعد تلك الخطبة المعزية الموحية الرجاء ، خطبة السعادة الجميلة ؟ »

قال : « منهم من يبكي لانه لم يسمعها من قبل . ومنهم لانه سمعها قبل الان ولم يستفد . وآخر لانه استفاد اياماً ثم تغلّب عليه المحيط وجرّته الوراثة باثقالها الباهظة الى هوة القنوط . وغيره يبكي بكاء عصبياً لان الباكين يحيطون به، ولو ضحكوا ورقصوا لكان اول المقلدين . وغيره ليظهر انه ذو نفس حساسة تستوعب كلّ تأثير صالح . ويبكي غيره لانه يرى في الجدار المحطم صورة لآماله الذاوية وهو من الذين يندبون حيال متراكم الاخربة ، ومندثر الديار ، ومتعفي الآثار »

قلت : « وأولئك الضاحكون »

قال : « هم ذوو الاذهان المحددة التي لا تعترف بما لا تفهم وتهزأ بكل ما لا تعترف . انهم أحق بالاشفاق من الباكين »

قلت : « وهناك خيالان لا يبكيان ولا يضحكان . رجل وامرأة يسيران جنباً الى جنب بخطوات هادئة بطيئة منحني الجبهة وفي عيونهما تتتالى دوائر الافكار ، أتدري من هما ؟ »

فرنا اليهما الشبح وقال : هما الارض المخصبة . هما الشعلة المقدسة . هما اللذان فهما واستفادا »

فقلت مكتئبة : « أسفاً على الخطاب البليغ تسمعه الجماهير الغفيرة فلا يستفيد به سوى اثنين ! »

فتألّق وجه الشبح بنور سماوي وقال : « بل ما أنفعه خطاباً هو في هذين الروحين غلّة للدهور ، وفي هذين الفكرين مجدّد للقديم ، وفي هذه الايدي مشعال يتطاير منه الشرر فتتقد به شموس الافلاك وشموس الاذهان . بورك به خطاباً بورك به ! »

وغادرني الشبح وسار الى ذينك الخيالين فنشر من كتفيه جناحين خفيين وحلّق فوق رأسيهما يقودهما ويرعاهما .

السهرات الراقصات

دنا موسم السهرات الراقصات فيمَّمها أهلُ المدينة افواجاً ، وسرتُ في جملة السائرين بثوبي القرمزيّ المردَّن والقلب يحدوني بشدو الشباب والطرب . وما خطوتُ في القاعةِ الساطعة خطوةً حتى ترنّحتُ لتوقيع العازفات والعازفين . واستحثني تمايل الراقصات والراقصين فأغفلتُ ذكر اللواعج والتباريح ، ونسيتُ انه بينا في رحبات الجذل يتمتع السعداء ويلهون اذا في كهوف القَدرِ تتفطّرُ حشاشات وتدمع عيون

رقصتُ مع كل راقصٍ ذي كياسة ، واحتسيتُ الكوثر من كؤوس عسجدية ، وبسمتْ شفتاي لكل شفة باسمة ، ولمعتْ عيناي لكل عينٍ لامعة . ولما طاف طائفُ الكرى بين أجفاني عدتُ مستوفية السرور الى مضجعي ونمتُ نومةً طويلة عميقة

واستيقظت في الغد فأذهلني ان أشعر بترضرضٍ في روحي ، وبطعم الفناء في فمي ، وبأثقال تميع على صفحة وجداني كأنها احمال الدماء

وفي السهرة الثانية حيَّاني أظرف رجل بين الرجال وقال « هل لكِ في دورة تتوافق وأنين الاوتار ؟ »

قلت « بل عفوتُ اليوم عن نفسي وعن ابناءِ الانس اجمعين فلا هم يتعبون بمراقصتي ولا انا أُتحَف بتعليقهم عليها »

قال « اذاً نجلس في خلوة المقصف حيث الشراب والحلوى والمجاملة »

قلت « لا . بل على الشرفة الصغيرة حيث النور رقيقٌ يمازج الظلام ولا يزيلهُ . اتصل بي انك محدّثٌ ألمعيٌ فكل سهرتي هذه اصغاء »

ففتل شاربيه بأناقة ، ورنا الى طرفيها باعجـــاب ، ثم انحنى شاكراً لأنه متواضع . ثم سار بي الى الشرفة وقال « تفضلي اذاً واستريحي على هذا المقعد ذي العلاقة بصاحبة الملايين »

قلت « ومن هذه ؟ هات بطرف من حكايتها ! »

ففعل بظرفٍ واضحكني شديداً . ثم قدّم اليّ زهرة أهدى مثلها ذلك النبيل الى تلك العظيمة ، وسرد حكايتهما. ثم تلا عليّ رسالة جاءتهُ من تلك الجميلة واخرى وردت اليـه من ذلك الوزير ، وسرد حكايتهما

ثم حدثني عن آخرين وأُخريات . وكان الراقصون يتتابعون أزواجاً متخاصرة وذاكرة نديمي سجلّ حفظت صفحاتهُ الامينة

تواريخ الافراد والجماعات صعوداً الى آباءِ الآباء بما يزينها من فضل — وما أقلّه ! — وما يشوبها من نقصٍ — وما أوفره ! وتطرّق الى إلالماع عن تأثيره الحالي في تقسيم الممالك واتفاق الدول وعقد المؤتمرات وسنّ القوانين . تلك شؤون لم يكن ليعرفها احد وانما هو كان يُسِرُّ بهـا اليَّ لأنه ينظر اليَّ بعين الاكبار والاعجاب ، وكل ما يتبع هذين أو يسبقهما من الاعتبارات . فكنت أصغي متفكهةً ضاحكة اذ أجد في ما يقول ظرفاً لا يبارى ، وتوقداً لا يخمد ، وفطنة لا يلحقها كال أو نضوب . إلا اني كنت أهمس لنفسي « ليته يسرد لي حكايتي لأعلم كيف هي في الغد تكون ! »

واتينا على آخر السهرة فقلت باخلاص « ما كان اقصر هذه الساعة ! »

ففتل شاربيه باناقة ، ورنا الى طرفيهما باعجاب ، ثم انحنى شاكراً لانه متواضع . ثم قال مشيراً الى رجل بطيء الخطى ، مهيب المنظر ، مرّ على مقربة منا . قال لا ادري ما اذا كانت قصيرة في نظر هذا » .

فسألت « ومن هو هذا ؟ » .

اجاب محدثي « هذا احد اثنين . فاما يظل صامتاً فلا يدرك المرء لسكوته معنى ولو عاشره مليون سنة ؛ واما يتكلم...

فينطبق عليه قول يزعم احد الظرفاء ان الله قاله عن الرئيس ابن سينا » .

قلت « ألا اخبرني بما يزعم ذلك الظريف انه تعالى قاله عن ابن سينا ! » .

فحدثني نديمي قائلاً « يزعم صاحبي المليح النكتة انه لما مضى ابن سينا الى ربه جاءه الملكان وسألاه « ما هو الله ؟ » .

فاجاب لفوره : « هو اسطقسٌ فوق الاسطقسات » .

« فتبادل الملكان نظرة فلم يفهما . فذهبا الى الحق سبحانه وقالا : « ربنا ! لقد جاء الساعة عبد من عبيدك البشر ، رجلٌ يتكلم كالمتكلمين ولكننا لا نفقه لقوله معنى » .

فسأل الحق جلّ وعلا : « وماذا يقول هذا الرجل ؟ » .

فاجاب الملكان : ربنا ! سألناه « ما هو الله ؟ » . فقال : « هو اسطقسٌ فوق الاسطقسّات » .

فاطرق المولى سبحانه وقد ألبس عليه مغزى الكلام ، وقال : « ان امر هذا الرجل لغريب ! وما اسمه ، ايها الملكان ؟ » .

فقال الملكان : « ربنا ! اسمه عبدك الرئيس ابن سينا » .

فضحك ذو الجلال وقال : « ها ها ها ! لقد عرفته ! فدعاه وشأنه . هذا رجل قضى عمره متكلماً فلم تفهم خلائق الارضين كلمة من اقواله » .

« ذاك ، على زعم صاحبي ، مـــا قاله الله تعالى عن الرئيس ابن سينا » .

فضحكت ثم ضحكت ، وودعت محدثي قائلة : « حقاً انك رجل ظريف! » وهمست لنفسي مرة اخرى «ليته سرد لي حكايتي لاعلم كيف هي في الغد تكون ! » .

* * *

واستيقظت في الغد فاذهلني ان اشعر بترضرض في روحي ، وبطعم الفناء في فمي ، وباثقال تميع على صفحة وجداني كأنها احمال الدماء .

وبكى فيّ قلبي لما شهدته من الدعوى الفارغة ، واللغو المزعج ، والتمثيل الكاذب ، والعاطفة السقيمة . ثم قلت مصممة : « اذن فالليلة لا رقص ولا حديث » .

وجنّ الليل فقصدت الى السهرة الحافلة . تجنبت قاعة الراقصات والراقصين ، وهربت من اظرف رجل بين الرجال ، وانتحيت مكاناً فيه ينفرد الرجل السكوت .

بادرته بالتحية فلم يردّ التحية ، والقيت عليه الاسئلة فلم يحر جواباً وانما نظر اليّ نظرة رأيت وراءها محافل الاجيال ومواكب الدهور . فجلست في ظلّ سكوته ، ولم يكن سكوته سوى سكوت الفضاء المملوء بحفيف الافلاك .

وانبسطت دوائر فكره وترامت قليـلًا قليـلًا فاحتوت هالة كياني ، واجتذبتني منه القوة السرية الى سويداء قلب الوجود حيث الليل الأليل يفضي الى برج الاضواء

وانتهت السهرة قبل ان تبتدىء . ولما عدت الى مضجعي لم ارقد الا لاواصل السير في عالم السكوت

واستيقظتُ في الصباح فحرّكت روحي جنـــاحيها وقد لوّنتهما اشعةُ قوس الغمام ، وارتفعت جبهتي تحت تاج معنوي قد ركز عليها ، ونموتُ وكبرت فجأة لأنّ مختلف الرغبات في المعرفة والاطلاع انبثقت فيّ

وها قد انقضت ملايين أعوام فيها تعلمتُ جميع لغات الانس والجن ، ووعيت جميع علومهم ، واستظهرت جميع مصنفاتهم ، وتتلمذت لجميع اساتذتهم ، وجادلت جميع فلاسفتهم ، ومحّصت جميع اقوالهم ، وسبرت هول اغوارهم ، وتسلقت جميع قممهم ، ولمستْ قدماي الداميتان عتبات الغيوب دون ان أظفر بادراك أبسط معنى يجولُ في خاطر الرجل السكوت

الموضوع التائه

جاء من « النادي الاسنى » وفدٌ كبيرٌ يدعوني الى القاءِ خطبة في الحفلة السنوية . فخاطبتُ الوفد قائلة :

« ايها السادة العلماء والاعيان والفضلاء

« انتم تمثلون في اشخاصكم المحترمة جميع مراتب المدعوّين .
« ولما كنتُ طامعةً في رضاكم ورضى الجمهور لئلا يضيع الوقت
« سدى ونكون عرضة للانتقاد ، فأنا اطلبُ اليكم ان تتفق
« كلمتكم على موضوع أخاطب النـــاس به . فأقبل دعوتكم بارتياح »

فقال احد الاعضاء « حبذا الاقتراح الحصيف ! اما ونحن عند حركةٍ نسائية نبتغي ان تتناول نساءَنا وبناتنا، فأحرِ بك ان تتكلمي في ترقية المرأة عن طريق العلم والتهذيب لانها ، وهي دعامة العائلة ، انما عليها تقوم عظمة الأمة وسلامة العمران »

فقال آخر : « عفوك سيدي ، كل موضوع غير هـــذا حسن . اما اذا ذاكرتنا بهذا الشأن فقد ينسحب المدعوون واحداً بعد الآخر ، كما سبق اني فعلتُ وبعض اصحـــابي يوم

قامت سيدة تلوك امامنا مـــا سئمنا سماعه ، حتى صرنا نحسب مردّده اسطوانة فارغة تحوك الالفاظ ولا تعي . فلتحدّثنا اذاً خطيبة الغد عن الحركة العمرانية الكبرى وروح العصر العامة فذلك انسب وانفع »

فقال ثالث : أنُزعج ابنتنا بتهيئة ما قد نلمّ بـه من مطالعة الصحف السيارة وانباء البرق والبريد ؟ نريـد ان ننشّط النساء ونبثّ فيهن حب الرقيّ والعرفان ، كما نريد تحويل الرجـال عن القهاوي وموائد المقامرة وحانات الرقص . فلتتكلم اذن في موضوع علمي فلسفي يشحذ القرائح ويغذّي النفوس »

فقال آخر : « سينعقد الاجتماع بعد طعام العشاء اي ساعة لا يكون هناك متسّع « للتغذية » ويكون « الشحذ » في غـير اوانه . ومـــا نفع كلام لا يفهمه سوى النفر القليل فتزهق ارواح الآخرين فيحسبون الخطيبة متقعّرة ويعتقدون في جهلهم وتخلّفهم العلم للنساء ؟ ألا فلتلق علينا بحثاً في ما مارسته اخواتها دواماً ، حتى في العصور المظلمة ، كالموسيقى والرقص والغنـاء فيجيء كلامها سائغا ملطّفاً بعد عمل النهار الشاقّ ، ولا تغلق معانيه على احد »

فاعترض آخر قائلا : « أتريد لتتسلّى انت وترتاح ان تجعلها هدفاً لتبجّح السخفاء الذين سيقولون : « بدلاً من ان تلقي علينا

دروساً نظرية في الرقص والغناء فالأوفق ان ترينا منهما الدرس العملي طارحة عنها عناء العلم والبحث والتنقيب ». قلت: اذاً انه خير لنا ولها ان تعمد الى عادة من عاداتنا الشائنة فتحكم تمحيصها وإظهار أضرارها ، مشيرة الى عادة اخرى يحسن الجري عليها . فنخرج من تلك الحفلة متفاهمين مستفيدين »

فقال آخر : « اذا طلبنا الوعظ والارشاد واحتجنا الى التهذيب والتقويم فعندنا الكاهن في الكنيسة والخطيب في المسجد. اما ونحن في تطوّر قوميّ كبير فلتلفتنا الى ما نفتقر اليه من المشروعات الزراعية والآلية والاقتصادية العائدة على البلاد بالثروة والفرج ، فتحثّنا على تأييده ويكون لقولها تأثير عظيم »

فتأفف آخر قائلا : « ولكنك تخلط ، يا صاحبي ، بين احتفالات الاندية وبين احزاب الاصلاح ولجان التقرير . ليس قصدنا سنّ قوانين جديدة للبلاد ، وتعديل ميزانيتها ، والقاء الدروس على ولاة الامور ، وابدال برامج التعليم بسواها . ان نحن الا اعضاء نادٍ اجتماعيّ من رجال ونساء يحيون ليلة انس وطرب . فأرى ان تترجم مقالاً او قصيدة عن كاتب او شاعر غربيّ ، لان الغربيين سبقونا الى الابتكار الذهني ، فتتحفنا بافكار جديدة نبتهج لها بلا اجهاد »

فصاح آخر قائلا : « فلتسقط الترجمة الى الحضيض وليهبط

التعريب الى قعر الهاوية ! حرام على من كان ذكياً ان يفني وقته في عمل جدير بمعشر الببغاوات البشرية . اما ونحن في هذا الاجتماع شرقيون لا اجنبي بيننا فلنتكلم اذن ، ولنتكلم بحماسة عن وجوب تعلق القوم بلغتهم ليفهم المتفرنجون كم هم ضالون وخليقون بالسخرية والاحتقار »

فقال آخر : « وما ذنب النادي اليك ، يا عزيزي ، لتقترح اقتراحاً يعود عليه بالتداعي ؟ ان جل الاعضاء متفرنجون ومتفرنجات ؛ أتريد ان يسخط هؤلاء تاركين قاعاتنا بلاقع ؟ دع الناس يتكلمون بما شاءوا من لغات انزلها الله ! اما خطيبتنا فلتصدق جنسها النسائي في حكاية غرامية تصفُ فيها بعض طبقات الناس وبعض عادات البلدان ، وتشرّح عواطف المرأة ونزعاتها المتنافرة . فالرواية اليوم مسهبة كانت ام موجزة ، غدت آلة فريدة لنشر الآراء التاريخية والنظريات العلمية والفلسفية فضلاً عن وصف احوال الشعوب وتسيير الاصلاح الاجتماعي والديني في وجهة معينة »

فقال آخر : « لا ارى الرواية مناسبة لهذا الموقف ، ولا يجعل للرواية هذه الاهمية الا ذوو الاذهان الكليلة الذين يأنفون الابحاث الجادّة مجردة من الاوهام والتلفيق . بل فلترمِ هي الى الافادة المباشرة وتحدثنا بما نكبره في فتاة كالطبيعيات

والفلك ، فانا لا احتمل من الكُتاب والخطباء الا الذين تنالني منهم فائدة علمية ما »

فقال آخر : « وهل الافادة محصورة في العلوم الطبيعية والرياضية ؟ وهل هي قائمة في التلقين الابله كما يلقّن المعلم صغار المتعلمين ؟ ارى ان الكاتب الامثل هو الذي لا يتصور نفسه فوق الآخرين علماً وذكاء ، بل يسترسل في ابحاثه واثقاً من ان الجميع يفهمونه . ولكل منهم ان يحتضن من آرائه الخاصة ما يتفق مع ميوله وحاجاته . هذا هو الكاتب الفنان الذي أعزه وأحبه وأهوى مجالسته عند صفحات الاوراق لانه يعرف كيف يثير مني الشجون والرغبات ، وكيف يفتح امامي جديد الآفاق. اما الذي يُنصّبُ نفسه معلماً لي فهو الجاهل المركّب، هو الدعيُّ المغرور الذي ألقي على تنطُعه وتفيهقه نظرة واحدة لازداد وثوقاً بما أعلمه ، وهو انه يسقيني من ماء غيره وانه ليس عنده اكثر مما يعطيني متعاظماً ...

فتنهد آخرٌ قائلًا « ربّاه ! هل جفّت مناهل العواطف في قلوب الناس حتى صاروا لا همَّ لهم سوى العلوم والابحاث ؟ ألا فلتُسمِعْنا قصيدةً منها منظومةً أو منثورة ، فهي شاعرة قبل كل شيء . ونحن في حاجةٍ الى أجنحة المثل الاعلى تساعدنا على النهوض من حمأة المادة لنعيش ، ولو لحظةً ، في ابديةِ الجمال »

فاحتجَّ قومٌ على الشعر المنظوم والمنثور قائلين انه آفة هذا الجيل ، وانبرى آخرون يدافعون عنهُ قائلين انه سلوى الحياة ووحيها ورونقها . واشتبك الفريقان في المناقشة والجدَل

فاختليتُ أنا بنفسي ابحثُ عن الموضوع فوجدتُ فيَّ أخلاطاً نفيسة من معارف ومدركات وقدرات كانت وستظـلُّ دواماً ارث بني الانسان : فهناك الابحاث الفلسفية والتاريخية ، وهناك الاكتشافات والاختراعات ، وهناك الآداب واللغات ، وهناك العلوم الطبيعية والرياضية ، وهناك المذاهب اللاهوتية والباطنية ، وهناك الفنون الجميلة على اختلافها ، وهناك الروايات والاشعار وعلوم البيان ووصف الاسفار ، وهنـــاك الموضوعات الخفيفة الرشيقة المفكهة ، والاخرى الوجيعة الرثائية المحزنة . وعـــلى مقربة منها اساليب النقد واقتراحات الاصلاح وخرائط المشروعات المتنوعة

وبينا جلبة وفد النادي تصطخب حولي جعلتُ انا اخلق لذاتي الجماهير المتعددة — كما تمثّل احياناً رواية مصغَّرة خلال تمثيـل الرواية الكبيرة — ، وصرتُ اخطب في كلِ جمهورٍ بمـا يحبُّ ويتطلب . فأقتضبُ الكلام هنا ، وهناك أطيلُه . اتكلم مرةً بتحمُّس الشاعر ، وبتدقيق الباحث اخرى . حيناً بصرامة العلم الطبيعي وحيناً بسيطرة الفكر الفلسفي . هنا بعذوبة الحب

وأنينه ، وهناك بقسوة الاصلاح واستثارته

خلقتُ لذاتي الجماهير لا لأعلِم بل لأتعلمّ ، لا لأفيد بـــل لأستفيد ، لا لاوقف الآخرين على اسرارهم وممكناتهم بل لأهتدي الى أسراري وممكناتي . تكلمتُ ودرستُ وكتبتُ وخطبتُ لأهذب نفسي وأدللها ، لاعزيهـــا وأنميها . فعلتُ ذلك لاطير ونفسي فوق الشواهق ، ونحسو ماء الغدران ، ونكتنهَ غور الاعماق ، ونمتصَ عصير الازهار ، فأعيش واياها تلك الحيـــاة الداخلية الرائعة التي يُشرِفُ منها وحدها على بدائع الكون

وما زلتُ أفعل ذلك — والناس يتناقشون في اي الموضوعات أنسب وأنفع ، وفي اي الموضوعات عليّ ان اعالج !

انتَ ايها الغريب !

انا وانت سجينان من سجناء الحياة ،

وكما يُعرَف السجناء بأرقامهم يُعرَفُ كلُّ حيٍّ باسمهِ

وقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم على الضحك من سواهم حيناً ، والضحك بعضهم من بعض احياناً .

انا منهم وإياك غير ان شبهك بهم يسوءني . لأني انما اقلدهم لأريك وجهاً مني جديداً . وانت ، اتجاريهم بمثل قصدي ام الهزؤ والاستخفاف فيك طويّة وسجية ؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف ، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور ، اراني واياك على تفاهم صامت مستديم يتخللهُ تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر .

بنظرك النافذ الهادىء تذوّقتُ غبطة من لهُ عينٌ ترقبه وتهتم بهِ . فصرت ما ذكرتك الا ارتدت نفسي بثوبٍ فضفاضٍ من الصلاح والنبل والكرم ، متمنيةً ان انثر الخير والسعادة على جميع الخلائق .

لي بك ثقة موثوقة ، وقلبي العيّ يفيض دموعاً. سافزع الى رحمتك عند اخفاق الاماني ، وابثك شكوى احزاني – انا التي تراني طروبةَ طيّارة ،

واحصي لك الاثقال التي قوّستْ كتفيَّ وحنت رأسي منذ فجر ايامي – انا التي اسير محفوفة بجناحين متوّجة بإكليل ،

وسأدعوك ابي وامي متهيبة فيكَ سطوة الكبير وتأثير الآمر ،

وسأدعوك قومي وعشيرتي ، انا التي اعلم ان هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين .

وسأدعوك أخي وصديقي ، انا التي لا اخ لي ولا صديق .

وسأطلعك على ضعفي واحتياجي الى المعونة . انا التي تتخيل فيّ قوة الابطال ومناعة الصناديد .

وسأبين لك افتقاري الى العطف والحنان ، ثم ابكي امامك . وانت لا تدري .

وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل .

واذ اسيء التصرّف وارتكب ذنباً ما سأسير اليك متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة .

وقد أتعمّـــد الخطأ لافوز بسخطك عليّ فأتوب على يدك

وامتثل لامرك .

وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن اعمالي حساباً لاحصل على التحبيذ منك او الاستنكار، فاسعد في الحالين.

وسأوقفك على حقيقة ما ينسب اليّ من آثام ، فتكون لي وحدك الحَكَم المنصف .

وما يحسبه الناس لي فضلاً وحسنات سأبسطه امامك فتنبهني الى الغلط فيه والسهو والنقصان .

ستقوّمني وتسامحني وتشجعني ، وتحتقر المتحاملين والمتطاولين لانك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جناني .

كما اكذّب انا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك، ولا اصدق سوى نظرتي فيك وهي ابرُّ شاهد .

كل ذلك . وانتَ لا تعلم !

* * *

ساستعيد ذكرك متكلماً في خلوتي لاسمع منك حكاية غمومك واطماعك وآمالك . حكاية البشر المتجمعة في فرد احد .

وسأتسمَع الى جميع الاصوات عليّ اعثر على لهجة صوتك . وأشرِّحُ جميع الافكار وامتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وافكارك .

وسأتبين في جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هي

شاحبة تافهة لانها ليست صور تعبيرك ومعناك

وسأبتسم في المرآة ابتسامتك ،

في حضورك سأتحول عنك الى نفسي لافكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين اليك لافكر فيك

سأتصورك عليلًا لاشفيك ، مصابا لأعزيك ، مطروداً مرذولاً لاكون لك وطناً واهل وطن ، سجيناً لاشهدك بأي تهور يجازف الاخلاص ؛ ثم أبصرك متفوقاً فريداً لافاخر بك واركن اليك

وسأتخيّل الف الف مرة كيف انت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عاديّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة الى الانفعال النبيل . وسأتخيل الف الف مرة الى اي درجة تستطيع انت ان تقسو ، والى اي درجة تستطيع انت ان ترفق لاعرف الى اي درجة تستطيع انت ان تحب

وفي اعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً لانك اوحيت الي ما عجز دونه الآخرون

أتعلم ذلك ، انت الذي لا تعلم ؟ أتعلم ذلك ، انت الذي لا اريد ان تعلم ؟

قرب منعطف السبيل

قرب منعطف السبيل عندما تمثلتُ انقضاء الماضي ، وجمود الحاضر واستحالة السير الى الامام ، لم يبقَ لي سوى اختيار احدى الميتتين : ميتة طويلة مفعمة بحشرجة القنوط ، وميتة الانتحار السريعة المنقذة

فاخترتُ هذه على ان اجعلها كيّسةً مأنوسة لا تلطخها الدماءُ ولا تتلوّى فيها الاعضاء . واهتديتُ الى الازهار المزعوفة التي تطعّم منعها العطرُ بالسمِّ ولهاث الردى . ولكن —

هناك ، في تلك الزاوية الضائقة حيث اقام القَدَرُ من دواهيه على صدري جدران الحديد ومعاقل الرصاص ، هناك قرب حاول الشفق برزتَ فجأةً امامي

واخذت تتكلم عن معانٍ اختفت طي المعاني ، واشياءٍ توارت في الاشياء ، وممكنات حُجبَت في المستحيلات ، وخيرٍ حصحص وراءَ الشر ، ونورٍ اشرق في لجج الظلام ، وسموٍّ تجلى خلال الحقارة .

وكانت يدك تتحرّك متريثةً متأنية فبدت منها الاشارات

سحرية ساهيةً ، كأنما هي انعكاس إشاراتٍ خفية عـلى المرايا المتبحّرة في مهجور القصور . وضاءَ الجوُّ حولي بلألاء الشرف والابهة والسؤدد . ومشى نظرك توًّا اليَّ يكتشفُ فيَّ جديد العوالم

نظرتَ ، فعلمتني اعزاز الوجود وأدركتُ اني ما تخيلتُ أجلي عند حينهِ الا لأتشدَّد واتحفّز لوثبةٍ كبيرة — كما يتنفس المتسابقون منتعشين متجدّدين قبيل خطير الاشواط

فارتدَّت الحوائطُ قليلًا قليلًا وتنحّتِ الحصونُ مسفرة عن المروج والرياض واتشحتِ الكائناتُ بنقابٍ وسيم لا تنسجهُ سوى يدِ الوجدِ على زعم المتيّمين

ولكن ، أنىّ جاءَ الوجدُ ؟.

انت لم تكن تهتم بي وانا لم أكن اهتم بك . ولكن علامَ تشلّ اوصال روحي للدنو من مكان حلّته ؟ وعلامَ اضطرابك وارتعاش يديك اذ تلمح خيالي عن بعد ؟

انتَ لم تكن تنظر الي وانا لم اكن انظر اليك . ولكن لماذا كانت تتبلبل خواطري وأهرب عند قدومك ؟ وأنت ان لم تستطع السكوت ، لماذا يخرج صوتك متقطعاً متهدجاً كانك تجاهد لتقهر تأثراً ما ؟

انت لم تكن تعبأ بوجودي وأنا لم اكن اعبأ بوجودك .

ولكن لماذا كنتُ اخاشنك متعملة الاعراض وعدم الانتباه ؟ ولماذا ، وانت مثال الوداعة والتهذيب، كنت تكفهرّ لحضوري وتنقبض كمن يود ان يتجنى علي ، او كمن يخشى ان يُرمى بالبشاشة والمجاملة . ثم يعود نظرك في المرة التالية يستفحصني عن زلته ــ انا التي كنت اغتفرُ لك واتناسى مُرغمة قبل ان تحدّث نفسك بالاستغفار

انت لم تكن تفكر فيّ وانا لم اكن أفكر فيك . ولكن لماذا كنت احيدُ عن طريقك لئلا التقي بك انا التي اود ان ابحث عنك في كل مكان ؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك اذ تعلم اني ارقبها، وتنغّم نبرات صوتك وتنوّعها اذ تعلم انها واصلة الي؟

انت لم تكن لي شيئاً وانا لم اكن لك شيئاً. ولكن وجوه القائمين حولك كنت اراها متألقة بنورك . وأنت كانت تدهشك كل حركة مني كانها لم يأتها قبلي انسان

انت لم تكن لي شيئاً وانا لم اكن لك شيئاً . ولكن أليس ان ارادتك حلّقت فوق خواطري كيد آمرة فتقتُ لاجلها الى الطاعة والخضوع ؟ أوليس انك كنت تحاول ارضائي وإثارة اعجابي حتى ارتفعت بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجليت بهياً عظيماً ؟ .

من انت ؟ وماذا كنت ؟

أكنت وحياً من فيض شاعريتي المكتظة ، وطيفاً من اطياف شوقي وعذابي ؟ ام انت حقيقة محسوسة مرت في أفق حياتي مرور السفن في البحر الى الشواطىء النائية ؟ لقد كنتَ وحياً من فيض شاعريتي المكتظة ، وكنت طيفاً من اطياف شوقي وعذابي ؛ وانت حقيقة محسوسة مرّت في افق حياتي مرور السفن في البحر الى الشواطىء النائية .

يا مهذّبي !

اين وطني ؟

عندما ذاعت اسماء الوطنيات .
كتبتُ اسم وطني ووضعت عليه شفتيّ أُقبّلهُ ،
واحصيت آلامه مفاخرة بأن لي كذوي الاوطان وطناً ،
ثمّ جاء دور الشرح والتفصيل فألممت بالمشاكل التي لا تحلّ ،
وحنيت جبهتي وانشأت أفكر ؛
وما لبث ان انقلب التفكر فيّ شعوراً ،
فشعرت بانسحاقٍ عميق يُذِلّني ،
لاني ، دون سواي ، تلك التي لا وطن لها .

يوقظني في الصباح نفير الجيوش المودعة . ولدوي ابواق النحاس انغامٌ تثقلها دموعُ الفراق ، واهازيج يُجنحها طلب التفادي والاستبسال. فامقت الظافرين واودُّ لحظة ان أتوحّد واياهم لانسى في ثروتهم فقري ، وفي بطشهم هواني .

وإذ تمرُّ مواكب الامم المظلومة منكّسة اعلامها وراء نعوش الشهدآء ، وهتاف الحرية والاستقلال يتغلب على انين الثكل والتفجّع منها . اعتز لأني ابنة شعب في حالة التكون

والارتفاع ، لا تابعة شعبٍ تكوّن وارتفع ولم يبقَ أمامه سوى الانحدار .

ولكنّ الشعوب تهمس همساً يطرق مسمعي: فهؤلاء يقولون « انتِ لستِ منّا لانك من طائفة اخرى » . ويقول اولئك : « انتِ لست منا لانك من جنس آخر » .

فاماذا أكون ، دون سواي ، تلك التي لا وطن لها ؟ .

* * *

ولدتُ في بلد ، وأبي من بلدٍ ، وأمي من بلدٍ ، وسكني في بلد ، واشباح نفسي تنتقـــل من بلد الى بلد . فلأيّ هذه البلدان انتمي ، وعن اي هذه البلدان أُدافع ؟

يمضي الموتى تاركين للأحفاد وراثات حسيّة ومعنوية ينعمون بها ، وشرفاً قومياً يعززونه ، وتقاليد يحافظون عليها . اما انا فلم يبقَ لي من آثار موتاي سوى الاثقال المعلقة في يديّ وعنقي. اثقال اذا حاولت طرحهـا والفرار جرّت قدماي ما هو اثقل منها . فهبطتُ على طريق جلجلتي تشير نحوي اصابع المتشفّين الساخرين ، وليس مِن يد رحيمة تعين وتؤاسي .

واما متاع موتاي فاستولى عليه اولئك الاباعد . ولو تخلّوا عنه لتحكم بي هؤلاء الاقارب الذين عيّرتني منهم القحة بصفات انقلبت عندهم عيوباً ، وانكر عليّ الحسد منهم والخمول حقّ التمتع بما اشتريته بالجهود والعبرات .

بأي اللهجات اتفـــاهم والناس ، وبأي الروابط ارتبط ؟ أأتقيّد بلغة جماعتي وهي ، على زعمهم ، ليست لي ولم توجـــد لامثالي ؟ ام اكتفي بلغة الغرباء وانا في نظرهم متهجّمة عليهـا ؟ أأصون عادات قديمة يحاربهـا اليوم الناهضون أم اقبل الاساليب الحديثة فاكون اسهام المحافظين هدفاً ؟

اذا جاملت العتيّ توصلًا الى ما لا غنى عنه قالوا عبدة تمرّغ جبهتها في التراب وتتزلّف ؛ وأذا جعلت لي من المصـــارحة سلاحاً ، ومن الانفة حصناً سطت علي اليدُ الحديدية ، ومزقتني ألسنة « الاخوان » ، وانفضّ من حولي « المخلصون » لانهم انما خلقوا لمساعدة نفوسهم

فلماذا قُدّر علي ان اكون ابنة وطن تنقصه شروط الوطنية ، فأمسي تلك التي لا وطن لها ؟

* * *

كل امة تحدّث عن عظمتها وفضلها على المدنية ونبلها في صيانة حقوق الضعفاء ، — فبأي الامم اعجب ؟

وكل امة — دون سواها — تحمي ذمـار الحرية وتذود عن العدل والمساواة والاخاء ، — فعلى أي الامم اتكل ؟

وكل دين — دون سواه — احتكر لاتبـــاعه الشرفَ والفضيلة في الحياة ، والسماء والالوهية بعـــد الممات ، — فأي

الاديان اعتنق ؟

وكل حزب يدّعي الصدق والعصمة ، وكل فرد صائب الرأي يضحي الخير الخاص للخير العام ، ـ فاي الاحزاب اصدق واي الافراد اتبع ؟

ما سمعت وصف بلاد الا سعى اليها اشتياقي

ولا حُدثتُ عن بسالة امة وسؤددها الا تمنيتها امتي

ولا اصغيت الى صوت قوم الا خلته صوت يأسي وأملي

ولا تبينت عيوب شعب ومفاخره الا ادركتها صورة مفاخري وعيوبي

ولا رمت طائفةً بالتعصب والمغالاة الا وجدت فيَّ هذه المغالاة وذاك التعصب

ولا تخيلت مسافات الارض وابعاد الفلك والصحاري والبحار والكواكب والعوالم الا اهتاجني الحنين اليها كأنها اوطان يردد هواؤها ترنيمة طفولتي وتنتظرني فيها قلوب الاحباب والخلان .

امّا وقوى إعزازي تتوزّع باستهتارٍ وجنون، فلماذا تتجمّع قوى اكتئابي عميقة مرهفة لاني انا وحدي في الدنيا — تلك التي لا وطن لها ؟

* * *

بنسيم وطني امتزج الوحي والنبوءات ،

ومع اشعة الشمس فيه انتشرت صور الجمال .

فكانت له حياة وهّاجة متلظّية وراء مظاهر الجمود والهجران وخيالات الآلهة تسيرُ ابداً فيه متمهلة متأملة ،

من القمم والوديان ، من الصخور والينابيع ، من الاحراج والمروج تتعالى معـاني بلادي في الضحى ، وعند الشفق تتكاملُ ارواح ُالاشياء وتتجمهر كأنها تتداول في انشاء عوالم جديدة .

أُحبُ عطور تربة الجدود ورائحة الارض التي دغدغها المحراث منذ حين . احب الحصى والاعشاب ، وقطرات الماء الملتجئة الى شقوق الاصلاد .

واحب الاشجار ذات الظل الوارف أكانت محجوبة في احشاء الوادي ام اسفرت مشرفة على البحر البعيد .

واحب الطرق الوعرة المتوارية في قلب الغاب ، وتلك المتلوية على اكتاف الجبال كالافاعي البيضاء ، وتلك السبل الطويلة الممتدة الممتـدة ، وكأن الغبار الذهبي منها ينتهي الى قرص الشمس .

ولكن ايكفي ان نحبّ شيئاً ليصير لنا ؟ وهكذا رغم حبي الافيح اراني في وطني تلك الشريدة الطريـدة التي لا وطن لها .

جربتُ من الوطنيات صنوفاً : وطنية الافكار والاذواق

والميول .

وتلك الوطنية القدسية المثلى : وطنية القلوب
فوجدتُ في عالم المعنى ما عرفته في عالم الحس
إلا بقعة بعيدة تفرّدت فيها الصور وتسامت المعاني .
ثقّفني ابناءُ وطني ، وأدّبني ابناءُ الاوطان الاخرى
وأسعدني أبناءُ وطني وأسعدني الغرباءُ ايضاً ،
ولا ميزة لابناء وطني في انهم اوسعوني إيلاماً
فقد نالني من الغرباءِ اذىً كثير :
فبأي الاقيسة اقيس ابناء الوطن ،
ولماذا اكون انا وحدي تلك التي لا تدري اين وطنها ؟

* * *

ايها السعداء ذوي الاهل والاوطان ، عرّفوا لي سعادتكم واشركوني فيها !

رضيتُ حيناً بأنه ليس للعلم والفلسفة والشعر والفن من وطن ، اما اليوم فصرت أعلم ان للعالم والفيلسوف والشاعر والفنان وطناً . صرتُ اعرف ضعف الانسان الذي اذا مال إلى النوم والراحة طلب مضجعاً ناعماً لجسمه المضنى لا مرْجاً واسعاً يتناوله منه الحرُّ والبرد ، ولا بحراً عرمرماً تبتلعه منه اللجج

اني أعبدُ تفطـُّرك الصامت ، ايهـا الفيلسوف القديم ، انت الذي بعد ان اكتشفت آيات الفكـر وعجائبه ، أرسلت زفرةً كأنها شكوى الدهور فقلتَ : انما اريد صديقاً لاموت لاجلهِ

وأَنا اجثو الآن خاشعة امام ذكرك مردّدةً ما يشبه قولك: إنما اريد وطناً لاموت لاجلهِ — او لاحيا به !

عند قدمي ابي الهول

الافق واسع واسع والليل عميق عميق ، وانوار المساكن واضواء الشهب في احشاء الدجى جراح وحروق . واصوات المدينة تحدّث عن اوصاب المدينة جاهلة ما عداها . لذلك جئتُ ناديَك انشد الاختلاء وراء تلال فصلت بين عمران البشر الضاجّ المقيد وعمرانك المستقل في حضن السكوت غير المتناهي .

تتتالى على البسيطة شعوبٌ ودولٌ تأتي بالاديان والشرائع واللغات والعادات ، وتتبارى في محق عمل الاجيـــال زلازل وبراكين وصواعق واوبئـــة وثورات وزعازع وطوفانات . وانت هنـا رابض امام اهرام انتصبت في وجه الفضـاء تنقض احكام الفناء . والهياكل تلقي بين يديك حديث الدهر بالفـاظ الحجر والصوان وتعززه بصور الارباب والملوك والكهاة . وكأن ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة خطـابها بلاغته وروعته .

ههنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملكتك الفيحاء مملكة الكتمان والجلال والايماء ، وعظمة القياصرة حديثة النعمة

دميمة حيال عظمتك المجردة الرفيعة . والانسان المتطاول الشغوف بهتك الاستار يدخل ايوان وحدتك السنيّ . ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الاشباح الفانية ، وغير ملموس لهذه الايدي الذبابية المتنقلة على مخالبك ومنكبيك تلهّياً واستقصاء.

غير ان الانسان ليس بالمتلهي المستقصي فحسب ، بل هو خصوصاً الدنف المتألم . يتناوله من الكون قهراً دوّار الفواجع والنوائب فيدرك ان الثبات العام منسوج من الوجل والاضطراب ، وان البقاء الظاهر مصنوعٌ من التغير والتحول . يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدر . يدرك ان عجاجات القوى تضيع جزافاً في شلاّل الذراري والانسال الجارف الآلهة والمحاربين والشارعين والقديسين والانبياء والقتلة والقتلى سواسية . يرى التعاسة على طريق العروش ، والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين . يرى الاعراس والجنازات والمواليد والوفيات يتخللها العوز والبطر ، والمرض والعافية ، والخيانة والامانة ، والدعوى والتطيّر ، والضلال والهدى . وازاء ما يفطره ويعذب سواه يظل الكون على ما هو ، والخلائق والاشياء تتوثب فيه وتتولد كالمياه الرهوة الرجراجة ، وكل ما خال منها وشيكاً كان نهاية تعقبها بداية وانقاضاً تستوي عليها الاسس .

واذ يزفر طالباً للحوادث تفسيراً يقال له «هذه هي الحياة !»

« ما هذا الا الحياة » « لا تكون الحياة الا كذا » نعم ، يا أبا الاهوال الساهي ، ازاء الهبة والحرمان ، والوفاء والغدر ، والبياض والسواد ، والفخار والمذلة ، والغلبة والانحدار . ازاء كل مسرةٍ وكل توجع ، التفسير واحدٌ لا يتغير ! اننا نفسر الحياة بالحياة ، ونداوي داء الحياة بمصل الحياة ، ونهرب من الحياة لنجدنا والحياة وجهاً لوجهٍ .

* * *

وانا صورة من ملايين صور الحياة نهضتُ اتفهّم الحياة كما نهض جميع اولئك المساكين . وكما وقفتَ قديماً على طريق طيبة تلقي الاسئلة على العابرين وقفت اسأل ابناء السبيل عن معنى الحياة . فقال احدهم « هي صدر الأم »

فالتصقت بصدر امي فاذا انا منه في عش دفء وحرارة وحصن مناعة وامان ، لا ترعبني الرياح العاصفة والرعود الذاوية والبروق الملعلعة والسيول المتدفقة . ومر يوم . فضاق بي صدر امي وعدت الى موقفي اسأل « ما هي الحياة ؟ »

فاجاب مجيب « هي الدين والتقوى »

فبادرت امرّغ جبهتي على عتبة المذبح مخفية اداة التقشف والاماتة تحت مزركش الاثواب . واقرع صدري مستغفرة عن آثام لم ارتكبها وذنوب لم تخطر على بالي. فناجتني الصور الصامتة

في اطرُها وهمست لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير . فمر يوم. وصدر الهيكل الذي كان ليناً عطوفاً انقلب كالمرمر صـــلابة وبرودة . وصارت الطقوس الدينية ترتيباً مسرحياً . وارواح البخور التي كانت تنزل عليّ فيض الوحي والالهام غدت مزعجة كعطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف . فعدت الى مكاني من السبيل سائلة « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت الغرور « وهل هي للفتـــاة غير التيه والدلال والتظرُّف ؟ »

فمضيت أساجل مرآتي فتعشقت صورتي فيها . ولم اكن افارق تلك الصورة الا لابحث عما يزينها ويجملها وكان يبكيني مشهد الباكين . فاصبحت وقد تذوقت لذة اللهو واللعب في نسل خيوط القلوب . ومر يوم . فأطل شبح الملل في عينيّ فعدت اسأل ابناء السبيل « ما هي الحياة ؟ »

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال : « هي الثروة والجاه العالمي وابهة العمران »

فعدوت في سبيل هذه ،سوى اني لم اصرف ساعة حتى تحجّر كياني . فعدت والضجر يقتلني اسأل « ما هي الحياة ؟ »

سألت طويلاً ، وبكيت غزيراً ، وقنطت حتى طلبت الموت فانبثقت صورة من غور عنائي . لم تتكلم وانما فهمت ان الحياة

عندها . أرأيت ، يا ابا الهول ، النجوم راقصة ? بلحظة تململ ثابت النواميس فرقصت جميـــع النجوم حولي ، وخشعت الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عنـــد ذي الجبروت ، وتناقلت الموجودات صورة وجه واحد — او فخرت بنسخ خطٍ من خطوطه وانتحـال معنى من معـانيه . واستحدثت جميـع الاشرقة نورها من تألق عينين اثنتين ، وصارت زرقة الجو وبهجة الربيـع وطلاوة الامواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك البسمة — تلك البسمة البطيئة الرقيقة النادرة . واستدعتني الالوهية الى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لولب الوجود وقمت واياه بادارة حركة الاكوان . فمر يوم . فقُمعت ثورة النجوم وقدمت خضوعها للنظام الاوحد ، وعادت لكل كائن اهميته في الخليقة . فرجعت اسأل العابرين « ما هي الحياة ? »

فقال صوت العلم الرزين « انا الحياة لاني اشرح الحياة »

فالقيت بنفسي في الخضم الزاخر اعالج العلم المـــادي تارةً والفلسفة الروحانية اخرى . كم من علم خلقنـا ، أيها المليك ، لنبحث عمّا لا يُعلم ، وكم من لغة ابدعنا لنشرح ما لا يشرح ! فهداني الجهابذة الى القوة التي يتمّ بها التفاعل الكوني بين الاجرام فلا تتفلت من عناقهـا شمس ولا ذرة : الجاذبية . فسألت وما هي هذه الجاذبية ، من رآها ، من سمعها ، من لمسها ? أهي وسيط

ينتقل على تموج الاثير ، ام هي سيّال يتموّج بنفسه مستقلّا عن العناصر ؟ فاجابوا « ذاك سر الحياة وهو مجهول »

الحياة ! مجهول ! لفظتان تمثلان الانفصال والاتحاد جميعاً

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطنافس ناعمة — منذ اربعة آلاف سنة ، يا حارس الصحراء ، منذ اربعة آلاف سنة والعلم يقلّب الذرّة الواحدة منها ويديرها ويقسمها ويجزّىء تقسيمها . لقد نحَرها بحثاً ودرساً وتحليلاً متلمساً علة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها . فسارت جهوده من مجهول الى مجهول ومن استفهام الى استفهام . وما زال مثلي انا الطفلة الغريرة يسأل « ما هي الحياة ؟ ما هي الحياة ؟ »

كذلك طال استجوابي للسابلة فضحك كثيرون ومضوا لانهم لم يفهموا ، والقليلون الذين وقفوا وأجابوا ارهفوا فيّ اللجاجة والحرقة والاسى

* * *

يا وليد بابل ام السحر والتعاويذ ، الى اي حقيقة رمز بك الرامزون ؟ لماذا جعلوا بين كفيك درجات خفية تفضي الى سرداب امتد وتاه في مجاهل الاهرام ؟ لماذا اودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون للالهة الهواتف ؟ ولماذا لا يعرف موضع اصغرك الاجوف منك سوى شفتيك المطبقتين

على كرّ الاعقاب ؟

تفترُّ شفتاك دون كشف واعلان ، اتأكيدٌ هذه البسمة ام ايام ؟ أإشفاق على دماء المفاداة وقد أُذيبت فيها الاوحال ، ام لأن ما هو كائن أقلص من ظل حصاةٍ حيال ما سيكون ؟

هذا نيلك رضاب الطبيعة المحي عُبدَ من منبعه الى مصبه لما يظهره من اريحية ووفاء ، اتدرك معنى احمراره الصيفيّ ومعنى خصبه ؟ أتفهم معنى شكل هندسي تجلّت به اهرامك الخالدة ؟ انت الذي نحتك الكلدان قبل ان يرسموا دائرة البروج ، أتعلم ما اذا كانت هذه الاهرام منائر للصحراء ام مدافن للفراعنة ، ام حصون دفاع ، ام مستودعات كنوز ، ام مجتمع عشاق ، ام محفلاً فيه يدينُ اوزريس موتاه ؟ اتعلم لماذا أدرجت اوراق البردي واسرارها الهيرغليفية طيّ الاكفان مع الموميات في التوابيت والنواويس ؟ أتعرف معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدس ؟ نحن الجهلاء نعلم ان جميع هذه انما هي رموزٌ الى الحياة المتحكمة فينا ، وانت ألم يبقَ لك ما يُكتسب ههنا لتحول نظرك وتسكت سكوتاً لا ينتهي ؟

ام انت لا ترقب هناك سوى ما نرقبُ ؟ أترصد حركة الاصبع الموجّه الابرة الممغنطة نحو الشمال تجر بعدها النُظُم الشمسية وهيئات الكواكب ؟ أم تستعرض مواكب الانوار

والظلمات ، وجيوش الثوابت والسيارات ، وجحافل الامكنة والازمنة ؟ ام انت تتهجأ اسم الحياة يخطّه قلم النواميس بحروف الشموس والمذنبات والسدم والعوالم ؟ أم يذهلك تدفق الفيض الالهي من وراء حجب الوجود ليتكوّن اثيراً وهواءً وناراً وماءً وهيولى ؟

نحن مثلك نترقب ونتوقع ونتوقع ونترقب ، فهل تعلم ما هذا الذي ننتظرهُ وتنتظرهُ الآفاق المنحنية علينا ؟ اقد سُجنا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حيناً بعد حين فنهبُّ نحسبها مقدمة لتحقيق الرجيّة ، وما هي غير السراب الخدّاع . فيزيد الظلام حلكاً ونلبث في الانتظار مترددين

لقد دفن نصفك في الرمال المغيرة على علاك وما زلت ترقب الشرق وتبتسم ، ونحن تغزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظل نترقب ونرجو .

أصحيح ان لغزك لغز الدهور ام خلقك الانسان رمزاً له كما خلق آلهته على صورته ومثاله؟ لقد أعطاك من الثور الخاصرتين مكمن الغريزة الجوفية الرامزة الى السكوت، ومن الاسد براثن التحمس والاستماتة الرامزة الى الجرأة ، ومن النسر الجناحين المحلقين في بعيد المدى الرامزين الى المعرفة، ومنه ــ من انسانيته ــ اعطاك الرأس مشيراً الى التبصر والارادة المدركة المتغلبة على

الغريزة والانفعال والخيال . فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبه ولا يضيف اليها ما بقي ؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الامل المتجدد أبداً فيه ؟ أليس انه مثلك لانك مثله ؟ أليس ان في اعماقه أبا هول شاخصاً ابداً في السموات العلى كلما ظفر بفجر وشروق لبث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة ؟ .

٢٢ — ٦ — ٥٢

فهرست

« مطبعة قلفاط » شارع بشارة الخوري تلفون ٣٠٤٦/٧٢ بيروت